الانفعالات

المبحث الأول
علامات وأنواع الانفعالات

إن طبيعة الإنسان التى خلقه الله عليها، المتمثلة فى تركيبه المزدوج من التراب ومن النفخة الربانية، تجعله يتميز عن بقية المخلوقات، فى أنه تظهر عليه علامات الانفعال بوضوح ويعبر عنها فى كثير من الأحيان، إما بالنطق أو علامات الوجه المتميزة أو بقية الحواس.

وهذا لا ينفى أن بقية المخلوقات لا تظهر عليها أى علامات، بل تظهر عليها، ولكنها فى الإنسان أوضح وأبرز ومميزة، لأن الإنسان يتأثر بمحيطه وبمنغصات الحياة أكثر من غيره، ولقدرته على التحليل والتفكير والاستنتاج والتعبير عن حاجاته، كما أنه له القدرة على كبت كثير من تلك الحاجات، مما يزيد فى حالات أو مسببات الانفعال وآثاره، بعكس المخلوقات غيره، حيث لا تستطيع كبت حاجاتها، كما أنها لا تقدر على الإفصاح عنها بوضوح، كما هو الحال لدى الإنسان؛ لهذا قلنا: إن الإنسان يتأثر بالانفعالات أكثر من غيره، لتلك العوامل الخلْقية التى ذكرناها وغيرها...

والانفعال حالة تعترى الإنسان جسميا ونفسيا بسبب شىء يهمه جدا ولا يمكنه القدرة على تنفيذه أو دفعه عنه أو جلبه إليه، سواء أكان ضارا أو نافعا محزنا أو مفرحا...

ويتأثر الإنسان بالانفعال تأثرا كاملا، جسميا ونفسيا ـ كما ذكرنا ـ ولكن التأثير يختلف من الشدة إلى الخفة، حسب نوع الانفعال وأهمية الشيء المسبب له.

المطلب الأول: علامات الانفعال وظهوره:

أ ـ علامات الانفعال:

للانفعال علامات يعرف بها، تظهر على الإنسان خارجيا منها:

١ ـ **علامات الغضب:** ومن مظاهرها، عبوس الوجه، وتقطيب الجبين، واحمرار الوجه، وانتفاخ الأوداج، وارتفاع الصوت الغاضب، والتلفظ بألفاظ غير سارة، وربما صحب ذلك تعد بالضرب أو الركل، وعامة الاهتياج..

٢ ـ **علامات الفرح:** مثل الضحك والانشراح، وبسط الوجه، والمرح والنشاط والحيوية، وخفة المزاج.

٣ ـ **علامات الخوف:** مثل الاضطراب العام، وشحوب الوجه، وامتقاع اللون، واصفرار الوجه، أو الهروب من الشيء الذى سبب الخوف أو الصراخ فى بعض الأحيان أو الخور وانهيار الأعصاب..[1].

ب ـ ظهور الانفعال:

تظهر الانفعالات عندما يحول حائل بين الإنسان وهدفه الذى يسعى لتحقيقه أو للوصول إليه، فعندما تكبت رغبة المرء ويصد عن بلوغ هدفه ومرامه، فإنه عندئذ يثور لتنفيذ ذلك، ويعبر عن غضبه أو عدم رضاه بالانفعال.

---

(١) سوف نتوسع فى هذه الأمور لاحقاً، إن شاء الله، تعالى.

فإحباط الدوافع أو السلوك الغريزى ـ كما يرى بعض الباحثين ـ[1] يسبب الانفعال، كما أن الإرضاء الفجائى هو كذلك من مسببات الانفعال، وإن اختلف فى درجته ونوعيته عن انفعال المنع، فالإنسان إذا أخبر بشىء يسره ولم يكن يتوقعه، وإنما فاجأه ـ فإنه ينفعل، وربما بكى فرحا من شدة الانفعال، وهو ما حدث لأبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ عندما أبلغه الرسول، صلى الله عليه وسلم، بصحبته فى الهجرة، كما حدثت عائشة، أم المؤمنين، رضى الله عنها ـ فجاء الرسول، صلى الله عليه وسلم، إلى بيت أبى بكر فى غير الوقت الذى اعتاد أن يأتى فيه، وهو منتصف النهار، فدخل على أبى بكر وقال:

(إن الله قد أذن لى فى الخروج والهجرة، فقال أبو بكر، والصحبة يا رسول الله، قال الصحبة. قالت عائشة: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكى من الفرح!! حتى رأيت أبا بكر يبكى يومئذ..)[2].

إن أبا بكر كان يرجو ويرغب فى أن يصحب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى الهجرة، وهو لا يود أن يفارقه لحظة واحدة، ويخشى ألا يأذن له بالهجرة معه لأى سبب، أو يأتيه أمر من ربه بالهجرة منفردا؛ ولهذا عندما أخبره الرسول، صلى الله عليه وسلم، بأن الله أذن له فى الهجرة، بادره بقوله: والصحبة يا رسول الله! فكانت إجابة الرسول له بالإيجاب، دافعا لانفعال الفرح الذى أبكاه.

جـ ـ ظواهر أخرى للانفعال:

وهناك جوانب أخرى لمظاهر الانفعال تنقسم إلى ثلاثة أقسام[3]:

---

(١) انظر: أصول علم النفس ص ١٢٤ د/ أحمد عزت راجح.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ٢/٥٣.
(٣) انظر: أصول علم النفس ١٢٥.

قسم ظاهر وبارز للعيان نستطيع عن طريق ملاحظته ورؤيته أن نتعرف على نوعية الانفعال، وربما على درجته من حيث القوة والضعف، والسرور وغيره، مثل أن نرى شخصا متجهم الوجه أو نراه ضاحكا أو مبتسما، أو أن نسمع صوت عويل ونواح أو زغاريد امرأة... فتدلنا تلك الظواهر على نوعية الانفعال ودرجته..

وقسم ثان من الانفعال لا يستطيع المراقب الداعى أن يتعرف عليه بسهولة ويسر، وربما لا يُعْرَفُ أصلا، وهذا النوع لا يشعر به إلا صاحبه، وهو المسمى بالانفعال الذاتى أو الداخلى، وهو الذى يؤثر صاحبه الكتمان والتستر عليه، ولكنه إذا زاد أو تطاول عهده ربما انفجر أو آذى الشخص نفسه مسببا له بعض الأمراض النفسية.

أما القسم الثالث فهو الذى يظهر على الجسد فى شكل اضطراب جسدى، مثل خفقان القلب واضطراب نبضاته أو ارتفاع ضغط الدم أو هبوطه أو الانهيار العصبى، ولعل هذا النوع يكون ثمرة من ثمرات النوع الثانى الخفى نتيجة للضغط النفسى الانفعالى على الجسد، بل نستطيع القول بأن الأنواع الثلاثة مرتبط بعضها ببعض، بحيث يمكن أن يكون كل واحد سببا للآخر وناتجا عنه.

وأهم ما يميز نوع الانفعال، وشدته، معرفة سببه، فبدون معرفة الشىء الذى تسبب فى الانفعال لا يستطيع الداعى أن يحكم عليه حكما جازما يفيده فى معالجته، وبالتالى فلابد من البحث أولاً عن السبب لمعرفة أصل الداء قبل إعطاء الدواء، وتكون معرفة ذلك بتتبع المسببات ومعرفة الخلفيات التاريخية والمشكلات الاجتماعية للمدعو.

ولنذكر الآن بشىء من التفصيل ما أجملناه سابقا من علامات الانفعال، ولكن تحت مسمى آخر، وهو أنواع الانفعال، كما سيأتى فى المطلب التالى:

المطلب الثالث: أنواع الانفعالات:

الانفعالات أنواع عديدة، وأشكال كثيرة، وتأثيرات مختلفة، كما أن مثيراتها ومسبباتها مختلفة هى الأخرى، نذكر من تلك الأنواع ما هو ظاهر ومؤثر مثل:

أولا: الغضب:

الغضب حالة انفعالية اهتياجية لا يمتلك الإنسان فيها شعوره وأحاسيسه تجاه المثير الذى سبب له الغضب، فيعبر عن ذلك بوسائل كثيرة، يتفاوت ضررها حسب شدة الانفعال وخفته، مثل رفع الصوت أو توجيه الشتائم والتلفظ بألفاظ لا تليق بالإنسان فى حالاته السوية؛ وأقصى وأقسى درجات الهيجان الغضبى ذلك الذى تسهم فيه الحركات والأعضاء، حتى يصل للضرب والأذى، وربما وصل إلى القتل والتنكيل،

والغضب أقبح أنواع الانفعال وأكثرها تدميرا للشخصية وتأثيرا على حياة الفرد، ولا يقف ضرره عند شخصية الغاضب، بل يتعداها إلى غيرها من أفراد المجتمع، مما يسبب حالة اضطراب عام وعدم استقرار له ولغيره إن تجاوز الحد المعقول.

ولكن مع ذلك فإن الغضب له فوائد ـ وله مضار وهى الأكثر، كما أنه له علاجات ومهدئات تحد من أثره، وسوف نجمل ذلك فيما يلى من النقاط:

١ ـ فوائد الغضب:

ذكرت ـ فيما سبق ـ أن للغضب بعض الفوائد، ولكنها محدودة بالنسبة لمخاطره، ولكن مع ذلك يلزمنا ذكرها للاستفادة منها أو لجعل الغضب ينصب عليها، بدلا من انصبابه على الجانب السلبى.

وأهم فوائد الغضب هى الغضب فى الله، وهو الذى يثور صاحبه عندما تنتهك حرمة من حرمات الله. فيثور المرء المسلم لردها، ولردع من يعتدى على تلك الحرمات. فهذا النوع من الانفعال الغضبى محمود ويرجى منه النفع والخير؛ لأن صاحبه لا يقصد الانتقام أو إلحاق الضرر والأذى، وإنما قصده الإصلاح، كما أن هذا النوع من الانفعال سرعان ما يزول بزوال مسببه، ولا يبقى بعد ذلك له من أثر، كما أن صاحبه لا يتعدى بالضرر، ولا يفقد اتزانه وعقله، ولا يطيش صوابه، بل يكون منفعلا، ولكن فى ثبات وتؤده، وهذا شأن كل ثائر لإحقاق الحق ونصرته على الباطل، وهو الذى كان يصدر عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من أنه لا يغضب ولا ينتقم إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الله..

ولقد أقسمت السيدة عائشة على ذلك قائلة: (والله ما انتقم لنفسه فى شىء يؤتى إليه قط حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله)[1].

ومن أنواع الغضب المحمود ذلك الذى نسميه غضب الشفقة، مثل غضب الوالد على ابنه أو ابنته إذا رأى منه ما يخل بشخصيته، وينتقص من قدره، فيغضب ويثور لذلك، وهو غضب رد الاعتبار وتوازن الشخصية، وقد يغضب المسلم من نفسه إذا رأى منها تقصيرا لا يليق بها، ويأخذها بالحزم والحسم، حتى ترعوى وترجع إلى الجادة.

ومن فوائد الانفعال الغضبى، الثورة لحماية العرض إذا انتهك، فيهب المرء ثائرا مدافعا عنه ذاباً عن حماه حتى يصان، ولولا أن الله جعل هذه الحمية فى الإنسان لانتهكت حرمات كثيرة ولاختل توازن العنصر الإنسانى وتدنى إلى الحيوانية الهمجية، وكذا يصان به المال من الغصب، وتحمى به الديار،

---

(١) متفق عليه، البخارى: كتاب الحدود (١٠) باب إقامة الحدود، الفتح ١٢/ ٨٦، ومسلم: كتاب الفضائل والمسند ٦/ ٣٢، ١١٤٥، ١١٦.

ويدافع به عن النفس، ويكف به الاذى عنها، ويصد به العدوان عليها؛ ولهذا فقد سمح الإسلام بمثل هذا النوع من الدفاعات والغضب لمثلها حتى تكون عند الإنسان القوة التى يدفع بها العدوان، ويصد بها الضرر الذى يمكن أن يلحق به؛ لأن الإنسان فى حالة هيجان الغضب تكون عنده قوة خارقة لا يحصل على مثلها فى الحالات العادية، وهذه نعمة من الله على الإنسان؛ تشجيعا له على الدفاع عن نفسه وعرضه وماله من أن تنالها اليد الباغية؛ ولهذا فقد جعل من يموت وهو يدافع عن تلك الحرمات شهيداً؛ فقد روى فى هذا المعنى سعيد بن زيد قول الرسول، صلى الله عليه وسلم:

(من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد)[1].

هذا إضافة إلى فائدة أخرى تفيد الشخص المنفعل نفسه، وهو تفريغ الشحنة الانفعالية الغضبية، التى ربما آذاه كبتها واحتقانها داخل نفسه، وسبب له أمراضاً عضوية ونفسية...

٢ ـ مضار الغضب:

أما مضار الغضب فهى ـ للأسف ـ كثيرة حتى ليتعذر على الباحث حصرها وإحصاؤها؛ لعدم تناهيها، فمنها ما هو نفسى، ومنها ما هو عضوى جسدى، ومنها ما هو اجتماعى..

إن الغاضب تتفاعل نفسه؛ وتزيد نبضات قلبه، ويغلى الدم فى دماغه، وتحمر عيناه وتنتفخ أوداجه، ويتصبب عرقه، ويفقد اتزانه، وتذوب شخصيته، فيخرج عن طور الاعتدال الإنسانى، ويصبح يعانى من مشاكل نفسية معقدة، لا سيما إن تكرر منه ذلك الهيجان مرارا، فربما سبب له أزمة نفسية قد تؤدى إلى الجنون واختلال العقل العصابى، ويعطى أو يسبب ما

(١) سنن الترمذى كتاب الديات باب (٢٢) ما جاء فيمن قتل دون ماله، ٤/ ٢٢.

يسمى بالشخصية الكاذبة، ذلك أن الهيجان يسبب قوة كبيرة تدفع المرء أن يتصور أن بإمكانه أن ينجز أعمالا كبيرة، قد لا تتحقق له بالفعل عند مباشرتها، حيث تخونه إرادته فى الغالب، كما أن الانفعاليين يفقدون كثيرا من شخصيتهم وذاتيتهم ووضوحهم، ورؤاهم لأنفسهم ولغيرهم[1]؛ ولهذا فإنهم عندما يرجعون إلى أنفسهم بعد ذهاب الثوران الانفعالى، فإنهم يسخرون مما قاموا به من أفعال، ويصيبهم الخزى، ويعتريهم الخجل المذل.

ويؤثر الانفعال الهائج فى عموم سلوك الإنسان، ويشوه الإدراك الصحيح، حيث لا يرى الغضبان فى خصمه إلا عيوبه وعوراته، ولا يسمع منه إلا الكلام القبيح والألفاظ الجارحة المخلة بالمروءة، فهو دائما يتوجه لنقائصه، ولا يلتقط إلا هفواته وزلاته.

وفى جانب التفكير، نجد الانفعال العاتى هو العدو اللدود للتفكير السليم الهادئ والناضج، ولا يتيح لصاحبه فرصة للتأمل وفحص العواقب التى تترتب على فعله وما ينجم عنه من خسائر، حيث نجد نظرته مؤقتة وآنية، ويضعف القدرة على حل المشكلات ويحد من بعد النظر، كما يطغى على العقل المدبر الناضج، ويرجع بالإنسان إلى العقلية الصبيانية، ويعقد لسان الشخص عن النطق بالكلام الطيب والتعبير الجميل، ولا يستطيع الهائج انتقاء كلماته، ولا وضعها فى مكانها المناسب، فهو يرمى بكلماته كالحجارة الثقيلة المبعثرة بدلا من أن يجعلها كالدرر المنظومة، والجواهر المنضودة، وتجده يتلعثم بالكلمات، ويهمهم ويدمدم بها كأنه طفل فى نهاية عامه الأول.

كما يجعل الانفعال الغضبى صاحبه يميل إلى السذاجة، فنجده يصد كل ما يسمعه يقال حول نفسه أو حول خصمه، فهو شديد التصديق لما يقال،

(١) انظر: الإرادة وفن الحياة، ص ٣١، بيير داكو، ترجمة رعد إسكندر وأركان بيثون، مكتبة التراث الإسلامى بالقاهرة.

وذلك لعدم قدرته على وزن الأمور وتمحيصها؛ لأن الاهتياج يمنعه من ذلك، وهنا يلعب الشيطان دوره فى إذكاء تلك الحالة، فيبدأ يفتل فى الغضبان بين السنام والقارب حتى يوصله لدرجة التبلد الذهنى، والتجمد العقلى، والتحجر الفكرى، ويتعدى هذا الخلل إلى بقية الأعضاء، حيث تقل عنده المهارات اليدوية[1] وكل الأعمال التى تحتاج إلى تركيز شديد، حيث تضطرب يداه وتغرورق عيناه، ويزيغ بصره، وتضعف ذاكرته، ويطيش فهمه، ويفقد صوابه، وتلتبس عليه الأمور، وتختلط الأوراق؛ ولهذا عندما وجه الرسول، صلى الله عليه وسلم، ذلك الرجل الغضبان الهائج إلى ما يسكن غضبه، ويريح أعصابه، لم يستطع أن يفعل ما أوصاه به الرسول، صلى الله عليه وسلم، وأنكر ذلك.

(عن سليمان بن صرد قال: قال كنت جالسا مع النبى، صلى الله عليه وسلم، ورجلان يستبان: فأحدهما احْمَرَّ وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبى، صلى الله عليه وسلم: إنى لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد، فقالوا له: إن النبى، صلى الله عليه وسلم، قال: تعوذ بالله من الشيطان، فقال: وهل بى جنون!!)[2].

وهذا كلام لو تفكر فيه هذا الرجل لأدرك أنه لا يقوله إنسان سَوِىٌّ لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، ولكنه جنون الغضب أعماه عن الحق.

وهناك مضار كثيرة تنجم عن الغضب نضرب عنها؛ خوف التطويل.

---

(١) انظر: أصول علم النفس، د/ أحمد عزت راجح، ص ١٤٣.

(٢) متفق عليه، البخارى: كتاب بدء الخلق، باب (١١) صفة إبليس وجنوده، الفتح ٦/٢٢٦. ومسلم بشرح النووى، كتاب البر والصلة، فضل من يملك نفسه عند الغضب ١٦/١٦٢.

٣ ـ مهدئات انفعال الغضب:

لم يجد علماء علم النفس العام علاجا نافعا لدرء الغضب وكبح جماحه، وصد عدوانه، وإيقاف عنفوانه، وما ذكروه من المعالجات لا يستحق أن يقال عليه علاج، وإنما هى وصفات لا تسمن ولا تغنى من جوع؛ لأنهم لم يعالجوا الداء من جذوره، وهو النفس الأمارة بالسوء ووخز إبر الشيطان الذى قطع الوعد على نفسه لَيَحْتَنِكَنَّ ذرية بنى آدم ولا يدعهم بكل السبل حتى يخرجهم عن الجادة، إن استطاع إلى ذلك سبيلا، إلا عباد الله منهم المخلصين:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

ولقد وصف علم النفس العام وصفات عامة يمكن أن تحد من الغضب، مثل التعليم والثقافة والتحضر[2]، مما سنمر عليه لاحقا، إن شاء الله تعالى.

أما فى الإسلام فإننا نجد له معالجات عديدة كلها مفيدة ومثمرة؛ ذلك لأنها نابعة من علام الغيوب ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[3]، وهو أدرى بمعالجة النفوس وما يصلح حالها، نذكر فيما يلى بعضا من تلك المعالجات[4]:

أ ـ ذكر الله، تعالى، والتعوذ من الشيطان:

إن المرء إذا كان على صلة بالله يذكره فى سره وعلانيته، أطراف النهار

---

(١) سورة الإسراء ـ الآية (٦٢).

(٢) انظر السلوك الإنسانى، ص ١٥٣، د/ انتصار يونس.

(٣) سورة طه ـ من الآية (٥٠).

(٤) لمزيد من التفصيل، انظر: كتابنا المنهج العلمى للدعوة الإسلامية، ص ٢٣٩، ط ١ (١٤١٢ هـ ـ ١٩٩١ م) مركز الكتاب للنشر بالقاهرة.

وزلفا من الليل ـ فإنه سيجد لذلك حلاوة، ويلمس فى نفسه طمأنينة وسكينة وهدوءا واستقرارا فى الحال، وراحة فى الضمير، فتصبح النفس مستقرة، والأعصاب هادئة غير مشدودة ولا متوترة، حتى إذا جاءها مثير للغضب لم تنجرف أمامه انجراف الغثاء أمام السيل العرم، بل تثبت كالجلمود الصلد فى مكانه لا تقلعه هوج الرياح، ولا ينزعه من موضعه عالى الموج؛ ذلك لأن النفس القلقة المضطربة مهيأة ومتحفزة للإثارة، فتهب لأول مثير، أما النفس المؤمنة الذاكرة فهى كموج البحر عند سكون الرياح، تنساب فى هدوء وتؤدة.

إن الغضب نزغة من نزغات الشيطان وهمزة من همزاته: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

وكان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يوصى من يرى استعداده للغضب وقابليته له، بألاَّ يغضب، يمعنى أن يحاول تهذيب سلوكه ما أمكنه لدفع الغضب وكبته ما أمكن، حتى يصير ذلك عنده عادة وديدنا. فقد جاءه رجل من تلك النوعية، فقال له: أوصنى يا رسول الله، قال: (لا تغضب)[2].

ب ـ كظم الغيظ:

ولقد أوصى الإسلام الإنسان أن يدافع غواية الشيطان وأن يدرأ عن نفسه إغواءه. وأن يحاول تعود التحكم فى شعوره وضبط انفعالاته، ومدح الذين يحاولون ذلك؛ لكى يدفعهم ويشجعهم على ترويض أنفسهم على التحكم فيها والهيمنة عليها، ونحن نعلم أن المدح أحد الحوافز النفسية للعمل الممدوح؛ لارتياح النفس له، وانجذابها إليه؛ ولهذا فقد ساوى الله بين

(١) سورة الأعراف ـ الآية (٢٠٠).

(٢) البخارى بشرحه فتح البارى، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب (٧٦)، ١٠/٥١٨.

الكاظمين الغيظ والمنفقين من أموالهم فى أحوالهم كلها، وجعل العفو سبيلا من سبل دفع هيجان الغضب وثورانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[1].

وكظم الغيظ له جوانب عضوية حركية، وجوانب نفسية داخلية، وكلاهما يكمل الآخر ويتممه، ويعينه على تهدئة ثوران الغضب، فهو من الناحية الحركية يعنى السكون والسكوت، والكف عن الكلام الذى يثير النفس، ويؤجج نار الغضب ويذكى أوراها، والساكت تسكن نفسه وتهدأ ثوته، وبالتالى يعطى عقله وفكره فرصة وبرهة للمراجعة ووزن الأمور وترجيح المصلحة.

وهذا جانب نفسى (سايكولوچى) يعمل بدوره على ارتخاء الأعصاب وتخفيف الضغط عليها، مما يهيئ النفس للتسامح ثم العفو، وهو المبتغى فى مثل هذه الحالات، ولقد جاء عن النبى، صلى الله عليه وسلم، قوله: (إذا غضب أحدكم فليسكت)[2].

وكظم الغيظ لا يعنى كبت الانفعال الذى يولد الأمراض، ويخنق الشحنة الانفعالية داخل النفس حتى تنفجر بمرض عصابى أو عقلى ـ كما يعنيه علماء علم النفس العام ـ ولكنه عملية استرخاء للنفس والأعصاب، واسترجاع لحكم العقل، وإتاحة الفرصة له للتفكر والنظر فى أمر الله ومراده فى الحادثة المسببة للانفعال، ثم الحكم عليها بعد ذلك، واستعراض الآيات القرآنية والهدى النبوى الذى يؤثر على النفس، فيعمل على إفراغ شحنتها الغضبية

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية (١٣٤).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٥/١٥٢ و ١/٢٣٩، وسنن أبى داود: كتاب الأدب، باب (٣) ٤/٢٤٩.

واستبدال معانى الرحمة والرأفة والعفو والتسامح بها، حتى يزول ما بالإنسان من هيجان. وهذا ليس بكبت بالمعنى الذى يعنيه علماء النفس، وهذا من الفروق الأساسية بين علم نفس الدعوة وعلم النفس العام، الذى طالبنا مرارا بأسلمته هو ورفاقه مما تسمى (بالعلوم بالإنسانية) فيما كتبنا من مقالات وكتب!!

والسكوت ـ الذى هو كظم الغيظ ـ يعنى فيما يعنى الصبر وتحمل الأذى الذى دعا إليه الإسلام من أوسع أبوابه، وحث عليه وأمر به فى كثير من نصوصه، وجعله فى صلب الدين، ومنح عليه الحوافز، وكافأ عليه بالجوائز، ويقال للصابر إنك تثاب على صبرك، وتوفى أجرك بغير حساب: ﴿ ...إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[1]. ﴿ ... وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[2].

والصبر يعنى تهدئة النفس وترويضها على قوة التحمل وهى راضية وراغبة فى ثواب ذلك الصبر والتحمل، وبهذا ينتفى الكبت الذى يزيد النفس ألماً، حيث لا وعد بالخيرِ عليه، ولن يستطيع أحد أن يَعِدَ بذلك إلا الذى يملك العطاء والوفاء به، وهو الله، تعالى، ولقد اتضح الجانب الذى يسبب الهدوء النفسى، ويخفف أو يزيل الحزن والاكتئاب النفسى الذى يعقب الغضب، اتضح ذلك فى قول الرسول، صلى الله عليه وسلم، للمرأة التى وجدها تبكى وتنتحب على ميت لها وهى واقفة ومكبة على قبره، فحاول إسكاتها وتصبيرها، ولكن الانفعال الذى تملكها لم يدع لها فرصة الإصغاء، ولكن الأهم هو أنها لم تكن تعلم أنه رسول الله، وعندما علمت به جاءت

---

(١) سورة الزمر ـ من الآية (١٠).

(٢) سورة النحل ـ من الآية (٩٦).

إليه تائبة راضية ونادمة، وهذا يعنى أنها بمجرد علمها بأنه نبى الله، زال كل ما بها من غم وانفعال، مما يدل على مدى أثر الإسلام على النفس البشرية عامة، والمسلمة خاصة ـ كما ذكرنا ذلك الأثر سابقا ـ حيث الوعد بالجنة والرزق الحسن يعمل عمله المؤثر فى النفس، ولنرجع إلى قصة المرأة فى مصادرها؛ لنرى ذلك الأثر عليها وقول الرسول، صلى الله عليه وسلم، لها معلما ومؤدبا. قال أنس بن مالك، رضى الله عنه: (مر النبى، صلى الله عليه وسلم، بامرأة تبكى عند قبر، فقال: اتقى الله واصبرى، قالت: إليك عنى؛ فإنك لم تُصَبْ بمصيبتى، ولم تعرفه! فقيل لها: إنه النبى، صلى الله عليه وسلم، فأتت النبى، صلى الله عليه وسلم، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك! فقال: إنما الصبر عند الصدمة الأولى)[1].

وفى رواية قالت عند مجيئها: أنا أصبر، أنا أصبر!!

ما الذى غير هذه المرأة فجأة وعند علمها بأن الذى صبرها هو النبى، صلى الله عليه وسلم؟ إنه الإسلام والرغبة فيما عند الله من ثواب لا يملكه الناس، وهذا التغيير النفسى واضح فى موقفيها الأول والثانى، حيث كان الأول هو الاستمرار فى الانفعال، حيث ظنت أن الذى يخاطبها شخص عادى لا يملك لها من الأمر من شيئاً يمكن أن يعوضها عن فقدها لميتها، والموقف الثانى عندما طمعت فيما عند ربها من الثواب والجزاء الأوفى، فسرعان ما زال ما بها من كدر، وجاءت تعتذر رجاء ذلك الثواب، بل تثبت بعض الروايات أنها انفعلت لعدم ردها الحسن للرسول، صلى الله عليه وسلم، أكثر وأشد من انفعالها الأول على فقيدها، فقال الراوى: فأخذها مثل الموت، عندما أُخْبِرَتْ بأن الذى صبَّرها هو النبى، صلى الله عليه وسلم.

(١) متفق عليه، البخارى: كتاب الجنائز باب (٣١) زيارة القبور الفتح ٣/١٤٨. ومسلم: كتاب الجنائز (١٥) وفى غيرهما من كتب السنن.

وهكذا يملك الإسلام وعلم نفس الدعوة ما لا يملكه غيره من معالجات النفس البشرية فى التسرية عليها وتسليتها وتعديلها. . .

وبهذه التوجيهات المشحونة بالمعانى الدافعة لعمل الخير الصادة عن عمل الشر يعوِّد الإسلام الإنسان التحكم والضبط فى سلوكه، وترويض عواطفه وانفعالاته وفق مقومات السلوك الإسلامى العام؛ ذلك لأن الإسلام يفرض على أهله سلوكيات معينة هى قمة ما يبتغيه الإنسان السوى، وغاية ما يحاول الاقتراب منه علماء النفس، وهو إمكان ترويض الإنسان على ضبط انفعالاته والتحكم بها أو توجيهها نحو الوجهة التى تخدم الفرد نفسه ومجتمعه أو تبذل فى شكل طاقات فعالة مثمرة، ولكنهم تعوزهم الوسائل التى يصلون بها إلى تلك الأمنية التى منوا بها أنفسهم، وكان لهم دونها خرت القتاد، ولكنها بالنسبة للمنهج الإسلامى فى النفس الإنسانية تكون قطوفها دانية وثمارها حانية:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾[1].

ويفصل ذلك الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى توجيهه السديد قائلا:

(ليس الشديد بالصُّرَعَةِ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب. . .)[2].

وفى رواية الإمام أحمد، يتساءل ويكررها ثلاثا، الصرعة كل الصرعة الذى يغضب فيشتد غضبه، ويحمر وجهه فيصرع غضبه، ويقول: (ما تعدون الصرعة فيكم؟ قالوا: الذى لا يصرعه الرجال! قال: لا، ولكن الصرعة الذى يملك نفسه عند الغضب)[3].

---

(١) سورة الشورى ـ الآية (٣٧).

(٢) البخارى: كتاب الأدب باب (٧٦) الحذر من الغضب، ١٠/٥١٨ من الفتح.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ١/٣٨٢.

ونشير هنا إلى التربية والبيئة وأثرهما على تعود المرء على ضبط انفعالاته أو تعويده ضيق النفس وغليانها، وهذا الأخير يحدث فى المدن الكبيرة، حيث تتعقد الحياة وتشعب مناحيها، وتقل اتصالات الفرد بغيره، ويكاد التكافل والتعاون والتراحم ينعدم أو يضيق نطاقه وينحصر، حيث يصبح الإنسان منغلقا على نفسه منزويا فى عقر داره أو فى حركة (ميكانيكية) تدور به من العمل إلى البيت، كما تشتد هنا حمى التنافس المادى والتسابق على جمع الثروة. . . وهكذا يشعر الإنسان بأنه معزول، رغم ما حوله من كثرة الناس والضوضاء التى تؤثر عليه نفسيا من جانب آخر، بدل أن تخفف عليه معاناته، هذا الذى نذكره تتضح معالمه، وتبرز خطوطه جلية فى المجتمعات غير الإسلامية عامة، والغربية منها خاصة؛ ولهذا فقد كثرت عندهم الأمراض النفسية والعقلية بصورة ملحوظة ومتواترة، مثل القلق الدائم، والتوتر النفسى، والذهان العصبى، والأمراض العقلية، والاضطرابات النفسية عامة، وتقل فى المجتمعات الإسلامية عامة، وتكاد تنعدم وسط المتمسكين بدينهم؛ لما ذكرنا من المهدئات التى يتعاطاها المسلم عن دينه، وهذا أمر ـ مع يقيننا القاطع به ـ مجرب تجريبا يزيل غبش الشك.

ثانيا ـ الخوف:

توطئة:

الخوف العادى هو الارتجاف الطفيف فى أعضاء الإنسان الداخلية مثل القلب، أو الأعضاء الخارجية مثل الأطراف، والذى يحدث عند مثير غريب مفاجئ، يكون فيه خطر عليه، هو أمر طبيعى فطرى، زود الله به الإنسان والحيوان على السواء؛ ليتنبه لبعض المخاطر، ويستعد لمواجهتها، بخلاف الخوف المصحوب بالقلق والاضطراب النفسى، وهو نوع مرضى ضار بصحة الإنسان، خاصة إذا كثر أو تكرر، أما النوع الأول ـ العادى ـ فهو نشاط

عصبى (فسيولوچى) مصحوب بمنبهات حسية عصبية تنتج عن نشاط الدماغ فى نهاية العصب المركزى، فمنذ عشرات السنين فقط اكتشف العلماء أن لهذا الجهاز العصبى صلة رئيسة بعمليات التحكم فى الألم والخوف واللذة والغضب والحركة وغيرها من الانفعالات التى تحدث أو تصدر عن الإنسان والحيوان، وسموا تلك النشاطات العصبية الحية (الديناميكية) بالدماغ الجديد أو الدماغ المفكر...[1].

ومن هنا نستطيع أن نقرر، أن الخوف والهلع العادى خلق به الإنسان، وزوده الله به؛ لفوائد ذكرنا بعضها آنفا، وهذا ما يفسر هلع الإنسان من كل ما يعتقد أن فيه ما يسبب له الضرر ويلحق به الأذى، أو يفسر بعامل الشفقة واللهاث وراء المصلحة والابتعاد عن عكسها، إلا من اعتصم بحبل الله ولاذ بحماه.

ولقد أشار القرآن إلى شىء من ذلك فى قوله، تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ مِنْ عَجَلٍ ...﴾[3].

والخوف، عموما، منه ما هو مفيد وما هو ضار يلحق بالإنسان أذى جسيما:

أ ـ الخوف النافع:

أما الخوف المفيد فهو الخوف من عقاب الله، تعالى، وهو الذى يدفع

(١) انظر: ص ٦٥، من علم النفس القرآنى، د/ عدنان الشريف.
(٢) سورة المعارج ـ الآيات (١٩ ـ ٢٣).
(٣) سورة الأنبياء ـ من الآية (٣٧).

المرء لاجتناب المحارم وغشيان المأمورات، وهو الذى يورث العبد تقوى وصلاحا فى ذات نفسه، ويكسبه الهدوء والاستقرار النفسى، ويورثه راحة الضمير والسعادة الدنيوية والأخروية، ويجعله عضوا صالحا فى المجتمع يعم خيره ونفعه الجميع، ويؤمن الإنسان من المخاوف الأخرى؛ لأن الذى يخشى الله ويخافه لا يخاف شيئا آخر، سواء أكان بشرا أو حيوانا أو جمادا أو معنى من المعانى؛ لأن تلك الأشياء التى تخيف الناس هى مخلوقات لله، تعالى، تسير وفق سننه فى الكون بأسره، وحسب مقتضاه وحكمه فيها، فلا يخشى أن يلحقه ضرر منها، حيث لا يضادها ولا يصطدم بها؛ لأنه يسير فى نفس مسار السنن تلك الذى رسمه لها خالقها.

أما الذى لا يخاف الله فإنه يخاف تلك المخلوقات المبثوثة فى هذا الكون؛ ذلك لأنه يسير عكس اتجاهها الذى استنه لها خالقها، فيتصادم معها، فتؤذيه وتسبب له الخوف.

يقول الله، تعالى، فيمن يخافه ويسير وفق سننه فى الكون:

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[1]، وقال: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾[2].

إن الذى يسير وفق سنن الله الكونية هو مع الله دائما؛ ولذلك لا يخاف، فالله معه، ولن يَترَهُ عمله، فقد طمأن موسى وهارون قائلا:

﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[3] وكذلك نفس المعية تأتى لموسى أيضا، ألا يخاف حتى من الماديات كالبحر مثلا:

---

(١) سورة الأنبياء ـ الآية (١٠٣).

(٢) سورة النمل ـ الآية (٨٩).

(٣) سوة طه ـ الآية (٤٦).

﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾[1].

أما الذين تنكبوا سنن الله فى كونه ومنهجه فى خلقه فهم لا يعون، وإذا نُصِحُوا لا ينتصحون حتى يصدموا بالحقيقة والواقع، ويدهمهم الخوف، فعندها يتساءلون:

﴿ ... حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾[2].

وهذا الناموس الإلهى يستوى فيه الأفراد والجماعات والأمم والشعوب، فكل من حاد عنه وجانبه يصدم بحقيقته بمجرد محاولة الروغان والاضطراب للخروج عنه يأتى الخوف والوجل، وحتى لا نقع فى تلك المخالفات، يضرب الله لنا الأمثال المختلفة؛ لنعى الدرس وننتظم الطريق:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾[3].

والخوف من غير الله يسبب الخمول والتراخى ويورث اللامبالاة، والاستخفاف بالقيم ومعالى الأمور، أما من يخشى الله ويتقيه، فإنه ينشط فى عمل الخير كله، ويجدُّ فى طاعة الله؛ طلبا لمرضاته، ويسعى لكسب ما يرضى ربه، فهو مجد مجتهد نشيط؛ ولهذا وصفه الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله:

---

(١) سورة طه ـ الآية (٧٧).

(٢) سورة سبأ ـ من الآية (٢٣).

(٣) سورة النحل ـ الآية (١١٢).

(من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، أَلاَ إنَّ سلعة الله غالية، أَلاَ إنَّ سلعة الله الجنة)[1].

ومن فوائد الخوف الغريزى، أنه يجعل الإنسان حذرا متيقظا لما يحيط به من مخاطر، وهذه من المنبهات الفطرية فى الإنسان خاصة والمخلوقات الأخرى عامة.

ب ـ الخوف الضار:

درجات الخوف:

توطئة:

الخوف كلمة عامة ومطاطة تتسع لكثير من المفاهيم، وتحتمل كثيرا من المعانى، وتتشعب لعدد من الفروع التى تحملها معانى اللغة العربية، ذات الدلالات المتنوعة، حسب التأثيرات التى تقع على الخائف؛ ذلك لأن الخوف منه ما هو قوى وشديد، وما هو متوسط، وما هو دون ذلك، وكلها درجات متفاوتة مثلما أنها متقاربة أيضا، نلخصها فيما يلى باختصار، ذاكرين ما يتعلق بها من معان؛ ليستفيد منها الدعاة فى تعاملهم مع المدعوين وفى أنفسهم أيضا؛ ذلك لأن منها ما يصل للدرجة المرضية التى تحتاج إلى العلاج النفسى الروحى قبل العلاج الدوائى، كما أنها فى الأصل لا تخضع كثيرا ولا تستجيب للعلاج الدوائى الطبى مثل استجابتها للطب النفسى الروحى القائم على تعاليم الإسلام وهديه.

الدرجة الأولى: الذعر:

الذعر ضرب من الخوف، ليس بالشديد جدا ولا بالهين جدا، ولم أجد

(١) رواه الترمذى فى سننه: كتاب صفة القيامة، باب (١٨) حديث (٢٤٥٠) ٤/٥٤٦.

له مثالاً فى القرآن الكريم بنصه، ولكن كتب اللغة جعلته نوعا من الخوف المخلوط بالدهشة والحيرة[1].

ووجدت معنى فى حديثين: أحدهما فى قصة أبى بصير عندما قتل أحد الرجلين اللذين أخذاه إلى قريش، ثم فر الآخر، ولحق أبو بصير برسول الله، صلى الله عليه وسلم فى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حين رآه: (لقد رأى هذا ذعرا...)[2].

والنص الثانى الذى وردت فيه كلمة الذعر بمعنى الخوف، جاء فى الحديث التالى:

(عن حميد بن هلال عن رجل من عبد القيس كان من الخوارج ثم فارقهم، قال: دخلوا قرية، فخرج عبد الله بن خباب ذعرا يجر رداءه، فقالوا لم ترع! قال: والله لقد روعتمونى!)[3].

الدرجة الثانية: الروع:

وهو كذلك نوع من الخوف، وهو قرين للذعر وإن كان أخف منه وطأة، ولم أجده فى القرآن إلا فى سورة واحدة، وفى آية واحدة، وهى سوة هود فى قصة الملائكة عند مرورهم بإبراهيم فى طريقهم إلى تدمير قرية قوم لوط، فراعه أنهم لا يأكلون، ولكن ذهب عنه الخوف بعد تقديم أنفسهم له بأنهم ملائكة، وليس من طبعهم الأكل، فخمد خوفه... قال، تعالى فى ذلك:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾[4].

---

(١) انظر: لسان العرب، حرف الذال، ٣/١٥٠٢.

(٢) البخارى: كتاب الشروط، باب (١٥) الشروط فى الجهاد، الفتح ٥/٣٣٢، والمسند ٤/٣٣١.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ٥/١١٠.

(٤) سورة هود ـ الآية (٧٤).

أما فى السنة فقد وردت كلمة الروع بكثرة، وكلها تعنى نوعا ونسبة من الخوف، جاءت معانيها متباينة فى الشدة، مما يظهر أن الكلمة تُعرف شدتها بحسب الاستعمال والموضع. (جاء عن أصحاب النبى، صلى الله عليه وسلم، أنهم كانوا يسيرون مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى مسير فنام رجل منهم فانطلق بعضهم إلى نبل معه فأخذوها، فلما استيقظ الرجل فزع، فضحك القوم فقال: ما يضحككم؟ فقالوا: لا إلا أنَّا أخذنا نبل هذا ففزع، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: لا يحل لمسلم أن يُرَوِّعَ مسلما)[1].

وكان من دعائه، صلى الله عليه وسلم: (. . اللهم استر عوراتى وآمِنْ رَوْعَاتى)[2].

ويظهر من حديث بدء الوحى أن الروع ليس بالخوف الشديد، كما ذكرت؛ لأن النبى، صلى الله عليه وسلم، لا يعتريه الخوف الشديد؛ ولهذا كان يحصل له عند بدء الوحى نوع من خفقان القلب كما جاء فى الحديث:

(. . . فدخل على خديجة بنت خويلد، رضى الله عنها، فقال: زَمِّلُونى، زملونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع. . .)[3].

ولهذا نقول: إن الداعى ينبغى أن يعالج هذا النوع من الخوف بالطرق العادية، ولا يدرجه فى قائمة الأمراض الخطرة ذات التأثير الكبير على المدعو، وليتعامل معه بصورة عادية وأن يعمل على منع ازدياده؛ حتى لا يتعدى هذه المرحلة فيكون من الخوف الخطر الذى يؤثر على الشخصية، ويعوق العمل ويعطل الإنتاج، ويكفى فيه التعهد والرعاية بصورة مستمرة

(١) المسند للإمام أحمد، ٥/ ٣٦٢.
(٢) المرجع السابق، ٢/ ٢٥.
(٣) البخارى كتاب بدء الوحى، باب (٣) الفتح ١/ ٢٢، ومسلم كتاب الإيمان (٢٥٢).

ومنتظمة، وطمأنة صاحبه بأنه ليس من ورائه من خطر، كما فعلت السيدة خديجة رضى الله عنها، مع النبى، صلى الله عليه وسلم.

الدرجة الثالثة: الرعب:

وهو نوع من الخوف الذى ترتجف منه الأوصال ويكون من شىء يشعر المرء أن فيه خطرا عليه، ويظل يتوهم ذلك الخطر وتلوح أمامه خيالات من قوته وسطوته، ولو لم يعرفها أو يتأكد منها، فيصيب الإنسان الخوف والرعب من جراء ذلك حتى تخور قواه، وتوهن عزيمته، ويصاب بالتبلد الذهنى، والشلل العضوى، كأن يتوهم الإنسان أن به مرضا عضالاً لا يشفى منه، أو أنه ستصيبه عدوى من جراء مخالطته لبعض المرضى، أو أن الجيش الفلانى سوف يهزم جيشه، لقوته، كما يتوهم بعض الناس قوة جيش إسرائيل، وأنه الجيش الذى لا يغلب!!

وقد ذُكرت معانى الرعب المختلفة فى عدد من سور القرآن الكريم مثل: آل عمران، والأنفال، والأحزاب، والكهف، والحشر: ففى آل عمران جاء قوله تعالى، عونا للمسلمين المجاهدين من أن الله، سينصرهم على عدوهم بإلقاء الرعب فى قلبه:

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1].

إن الرعب لا يعرف طريقه إلى القلوب المؤمنة بالله، العامرة بالإيمان، التى تعترف بأن القوة لله جميعا يهبها لمن يشاء، إن القلوب المؤمنة تنزل عليها السكينة، وتغشاها شآبيب الرحمة، فهو لا يعرف الاضطراب والْفَرَق من غير الله، ولكن تلك الخاوية من الإيمان، وتلك التى أشركت مع الله

(١) سورة آل عمران ـ الآية (١٥١).

غيره من مخلوقاته، فهى ملجأ الرعب ومأواه، فهى دائما واجفة خائفة؛ لأن معبوداتها لا تغنى عنها من الله شيئا.

وهذا الرعب هو من جنود الله التى ينصر بها عباده المؤمنين الصادقين... وهكذا يقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر)[1].

الدرجة الرابعة: الرهبة:

وهى توءم للرعب، حيث إنهما جميعا من دواعى نصر المؤمنين وإعزازهم، وهى خوف وفزع ترتعد له الفرائض، وتوجف له القلوب، ويهجم على الشخص، ويمنع حواسه الإدراك والحراك... هذا فى قمته، ومنه ما هو خفيف يكون فى شكل اضطراب وارتباك عام عند ملاقاة الأكابر والعظماء فى أعين الناس وأعرافهم، وكذلك بالنسبة لذوى البطش والتنكيل، أو من يكِنُّ لهم الناس الاحترام والتبجيل.

وقد يرهب الإنسان موقفا عاما يقفه لأول مرة لم يعتده من قبل أو تتحول حاله إلى حالة لم يألفها... كل تلك المواقف ذات رهبة تؤثر على شخصية المرء، إلا إذا كان من أصحاب العزائم القوية والإيمان الراسخ.

ولهذا نحذر الدعاة من أن يرهبوا غير الله ومحارمه، كما نحثهم أن تكون شخصياتهم متكاملة يهابهم ويرهبهم غيرهم، ولا يهابون أحداً؛ ذلك لأنهم على الحق والعدل.

ولقد وردت معانى الرهبة المختلفة فى القرآن الكريم فى سبع سور هى: البقرة، والأنفال، والأعراف، والنحل، والأنبياء، والقصص، والحشر، قال

(١) متفق عليه، البخارى بشرحه فتح البارى، كتاب التيمم باب رقم (١) ١/٤٣٦. ومسلم بشرح النووى كتاب المساجد حديث رقم (٣) ٥/٣.

تعالى، فى سورة الأعراف عن سحرة فرعون وترويعهم للناس وإرهابهم بالسحر:

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾[1].

وغالبا ما تقرن الرهبة بالرغبة، خاصة فى جانب الله، تعالى، عندما يرهبه عباده الصالحون؛ خوفا من عذابه، ورغبة فى عفوه وضاه. ﴿.. إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[2].

وجاءت الكلمة فى السنة بعدة معان منها: تحذير الرسول، صلى الله عليه وسلم، المسلمين من أن يُرْهِبَهُمْ شيء ويحول بينهم وبين الحق، حتى تكون الشخصية الإسلامية قوية فى الحق صادعة به؛ لأن أعداء الإسلام قديما وحديثا ما برحوا يحولون بين الإسلام وبين الناس بشتى السبل وكل الوسائل، لاسيما وسيلة الترهيب، خاصة بعد أن وهن المسلمون وتخلوا عن القوة التى أصبحت سلاحا فتاكا فى يد عدوهم يدمرهم به ويخوفهم من إظهار الحق الذى جاءهم به الإسلام؛ ولهذا يحذر الرسول، صلى الله عليه وسلم قائلا.

(لا يمنعن رجلا رهبة الناس إن علم حقا أن يقوم به)[3].

الدرجة الخامسة: الوجل:

الوجل ضرب من الخوف الخفى الذى يسرى فى الأوصال الداخلية، وهو

---

(١) سورة الأعراف ـ الآية (١١٦).

(٢) سورة الأنبياء ـ من الآية (٩٠).

(٣) مسند الإمام أحمد، ٣/٨٧.

اضطراب قد لا يلاحظه غير المدقق أو من عرف أن الشخص خائف، وقد جاء فى أربع من سور القرآن هى: الأنفال، والحج، والمؤمنون، والحجر.

وجاءت كلمة الوجل فى كل تلك ـ ماخلا سورة الحجر ـ بمعنى الخوف من الله، تعالى، من عذابه وغضبه وسخطه، والرغبة فى جنته ومغفرته، إنهم المؤمنون الذين يهابون ويرهبون حمى ربهم، فبمجرد ذكر الله ترتعد قلوبهم وجَلاً وخوفا وتكبيرا للذات العلية عندهم، وتعظيما لها وإجلالا ومهابة، قال، تعالى، ذاكرا حال المسلمين المؤمنين عند ذكره:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[1].

أما المعنى الآخر الذى ورد فى سورة الحجر فهو الوجل العام، وهو الذى حصل لنبى الله إبراهيم، عليه السلام، عندما جاءته الملائكة تخبره بهلاك قوم لوط، فأخذه الخوف عندما قدم لهم العجل المطبوخ وامتنعوا عن أكله، قال، تعالى:

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾[2].

وفى السنة حديث العرباض بن سارية الذى يقول فيه:

(وعظنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يوما بعد صلاة الغداة موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب...)[3].

---

(١) سورة الأنفال ـ الآية (٢).

(٢) سورة الحجر ـ الآيات (٥١ ـ ٥٣).

(٣) سن الترمذى كتاب العلم، باب (١٦) ما جاء فى الأخذ بالسنة واجتناب البدع، ٦/ ١٢٣.

الدرجة السادسة: الفزع:

الفزع هو الخوف الشديد، وهو الذى يصيب المرء من الأهوال والمصائب العظام، وورد فى أربع سور من القرآن هى: النمل، والأنبياء، وسبأ، وص، وأكثر ما ورد فى القرآن عن كلمة الفزع جاء لأهوال يوم القيامة وما يجد الناس فيه من خوف شديد، مثل قوله، تعالى:

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾[1].

ولقد سمى الله يوم القيامة باسم الفزع لشدة الخوف والهول فيه، ولكن المؤمنين الصالحين لا يخافون ذلك اليوم لثقتهم بربهم ووعده لمن آمن واتقى وعمل صالحا؛ ولهذا فقد آمنهم الله من روع ذلك اليوم بقوله، تعالى:

﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[2].

وفى السنة جاء حديث أنس بن مالك، رضى الله عنه:

(فزع الناس، فركب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فرسا لأبى طلحة بطيئا، ثم خرج يركض وحده، فركب الناس يركضون خلفه، فقال: لم تراعوا، إنه لبحر، فما سبق بعد ذلك اليوم)[3].

ولهذا قلنا إن الفزع هو خوف الخطوب المدلهمات، وهذا النوع الكبير الشديد من الخوف ينتج عنه نوع آخر من الخوف مترتب على آثاره العميقة فى النفس الإنسانية، هو ما سنذكره فى الفقرة السابعة فيما يلى:

---

(١) سورة النمل ـ الآية (٨٧).

(٢) سورة الأنبياء ـ الآية (١٠٣).

(٣) البخارى: كتاب الجهاد، باب (١١٧) الخروج فى الفزع وحده، الفتح ٦/ ١٢٣.

الدرجة السابعة: الذهول:

يحدث الذهول عندما يُسْكِن الفزع الأعضاء ويجمدها، فيخل بأعضاء الحركة والحس، فيتجمد الإنسان ويتسمر فى مكانه، ويعتريه خمول ذهنى وخمود فكرى، حتى ينسى أعز ما عنده ويزهد فيه، وربما تحول هذا النوع من الخوف إلى مرضى عصبى مستمر إن لم يعالج بالطب الإسلامى كقراءة القرآن وأحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، والدعاء، وبالترويح والتخفيف على المريض بمخففات ومسكنات تهدئ من روعه، وتعيده إلى رشده وطمأنينته..

ولم أجده فى القرآن الكريم إلا مرة واحدة، وفى سورة واحدة هى سورة الحج، وقد ورد فى هول يوم القيامة، وعبر به القرآن بأبلغ تعبير كناية عن شدة الخوف وهول الصعقة، حتى إن الأم الحنون الرءوم الحانية على رضيعها تغفل عنه وتتركه من شدة ما أحست به فى نفسها من خوف طغى على حبها غير المتناهى لرضيعها، وتصل دقة التعبير القرآنى فى تصويره للوصف عندما يعبر بأن المرأة التى أصابها هذا الخوف الذهولى هى (مرضعة) ولم يقل القرآن (مرضع) حيث إن الأخيرة هى التى من شأنها الإرضاع، وإن لم تكن تمارسه فى تلك اللحظة، ولكن المرضعة هى التى ترضع فى تلك اللحظة والحال، إن طفلها يلقم ثديها ويمص درها، ومع هذه الوضعية الخاصة التى يزيد فيها حنان الأم حيث هى متهيئة بكل حواسها، حتى إن المرأة حين الإرضاع تفرز (هورمون) الحليب الذى يزيد من عاطفتها نحو وليدها، مما يجعلها تدر عليه حليبا زائدا، ومع هذه العاطفة المشبوبة فإنها تذهل عنه وتتركه من شدة الخوف بسبب هول ذلك اليوم الذى يترنح الناس فيه ويتمايلون، ليس طربا وإنما سُكْراً ليس من خمر ولكن من الخوف الذى يشل جهاز التوازن فى مخيخ الإنسان، ويبطل عمله فيصبح الإنسان يترنح فى

مشيه... يقول الله، تعالى، واصفا حال الناس فى ذلك اليوم ووضعهم النفسى:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1].

إنه (مشهد حافل بكل مرضعة ذاهلة عما أرضعت، تنظر ولا ترى، وتتحرك ولا تعى، وبكل حامل تسقط حملها للهول المروع ينتابها... وبالناس سكارى وما هم بسكارى، يبدو السكر فى نظراتهم الذاهلة، وفى خطواتهم المترنحة... مشهد مزدحم بذلك الحشد المتماوج، تكاد العين تبصره لحظة التلاوة، فيما الخيال يتملاه، والهول الشاخص يذهله، فلا يكاد يبلغ أقصاه، وهو هول لا يكاد يقاس بالحجم والضخامة، ولكن يقاس بوقعه فى النفوس الآدمية، أى فى المرضعات الذاهلات عما أرضعن - وما تذهل المرضعة عن طفلها وفى فمه ثديها إلا للهول الذى لا يدع بقية من وعى - والحوامل الملقيات حملهن، وبالناس سكارى وما هم بسكارى: (ولكن عذاب الله شديد)..

إنه مطلع عنيف مرهوب تتزلزل له القلوب..)[2]، وتنخلع له الأفئدة، وتطيش لأجله العقول الراشدة... إنه فوق طاقة البشر وأكبر من قدرهم وتحملهم، إنه هول الذهول... اللهم سترك وعافيتك، اللهم سلم.

هذا هو تصوير القرآن للذهول، فماذا عن الحديث النبوى؟ جاء فى رجز عبدالله بن رواحة بين يدى النبى، صلى الله عليه وسلم، عند دخوله مكة فى حديث أنس، أن النبى صلى الله عليه وسلم، دخل مكة فى عمرة القضاء

(١) سورة الحج - الآية (٢).

(٢) فى ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/٢٤٠٨.

وعبدالله بن رواحة بين يديه وهو يقول:

خلوا بنى الكفار عن سبيله

اليوم نضربكم على تنزيله

ضربا يزيل الهام عن مقيله

ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر: يابن رواحة، بين يدى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وفى حرم الله تقول الشعر؟! فقال له النبى، صلى الله عليه وسلم: خل عنه يا عمر، فلهى أسرع فيهم من نضح النبل!!)[1].

ومن معانى الذهول الغفلة والنسيان والتغاضى عن الشىء وترك ذكره عامة، من ذلك قول النبى، صلى الله عليه وسلم، عن الدجال ووقت مجيئه، ما جاء فى حديث صفوان بن عمرو عن راشد بن سعد، قال: لما فتحت اصطخر، نادى مناد: ألاَ إن الدجال قد خرج!! قال: فلقيهم الصعب ابن جثامة، قال، فقال: لولا ما تقولون، لأخبرتكم أنى سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: لا يخرج الدجال حتى يذهل الناس عن ذكره، وحتى يترك الأئمة ذكره على المنابر)[2].

وهذا النوع له خطر داهم على الشخص، وله قدرة فائقة فى تدمير الشخصية وتحطيم معنوياتها وإنهاك قوتها وسلب إرادتها؛ ولهذا لزم الدعاة أن يتعاملوا معه بسرعة وحصافة؛ حتى لا يستفحل ويفلت الأمر من يدهم؛ لأنه ربما تسبب فى مرض نفسى أو صدمة نفسية ربما أودت بحياة الشخص أو

(١) سنن الترمذى، كتاب الأدب، باب (٧٠) ما جاء فى إنشاد الشعر، ٥/١٢٧.
(٢) مسند الإمام أحمد، ٤/٧٢.

دمرت عقله. ويحدث الذهول من هول الصدمات غير المتوقعة ذات المفاجأة التى تحدث للإنسان دون مقدمات، وهو يتبع الخوف الشديد، وربما الفرح الشديد لحدث لم يكن فى الحسبان، ويحدث عند انقلاب السيارات أو اصطدامها بعضها مع بعض أو حالات الغرق. . . ولهذا يحتاج للمكنات العاجلة والإسعافات السريعة؛ لكى تعاد للإنسان الذاكرة التى شلها وعطلها هول المصيبة. .

أما إذا تُرك فسوف يظل صاحبه ـ إن قدر له البقاء ـ هامدا ساكنا ذاهلا غافلا، لا يدرك نفسه فضلا عمن حوله. نسأل الله العفو والعافية.

الدرجة الثامنة: الهلع:

الهلع: ضرب من الخوف، وله عدد من المعانى، منها الحرص، والجزع، وقلة الصبر، ومنها الضجر، وعدم تحمل الأذى، وعدم الصبر على الشدائد والمصائب. . .

والهلوع هو الذى لا يصبر لأدنى مصيبة أو كربة تلم به، فتجده يسخط ويتبرم ويضيق بها ذرعا.

وهو نوع من الخوف، خاصة من النواحى الاقتصادية، حيث ينعت الهلوع بأنه صاحب العين التى لا تشبع، والنهم الذى لا يقنع، فمهما كثر عنده من مال يراه قليلا ضئيلا. . . وهو الشحيح الذى يكنز المال ويدخره ويضن به حتى على نفسه وعياله، وهو صاحب الشح المطاع والهوى المتبع، فنفسه مريضة بجمع المال واكتنازه والحرص عليه.

والهلع ـ فى عمومه ـ مرض يحتاج من الدعاة إلى معالجات خاصة، وفهم لنفسية الهلع والتمييز بينهم، حيث إنهم ليسوا كلهم سواء، كما أن أسباب الهلع متنوعة ومتعددة. . .

والهلع ـ فى عمومه ـ خصلة متأصلة فى بنى آدم، إلا أن الله يحفظ منها عباده المخلصين، ويبعد شرها عنهم؛ ذلك لأن الإنسان يفزع ويجزع من كل ما يتصور أنه يسبب له الأذى، وإذا مسه شرّ لا يصبر إلا من عصم الله وحفظه، وإذا جاءه الخير أبى عليه وتمنع، ومن هنا جاء نعت القرآن للإنسان عامة بصفة الهلع، فقال، تعالى:

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[1].

إذن الهلع صفة تلازم عموم البشر ملازمة ظلهم، باستثناء أصحاب لصفات التسع الذين ذكرهم الله فى الآية، وهم عدد كبير من الناس، والحمد لله، ولكن هل إذا توافرت صفة أو ثلاث صفات أو أقل من المذكورات فى الآية، يخرج صاحبها من صفة الهلع؟ الذى يظهر من سياق القرآن هنا فى هذه الآيات أنها صفات تكاملية، وشروط غير قابلة للتجزئة، فمن توافرت فيه جميعها فهو قد نجا، ومن أبطأت به إحداها فقد أناخ دون المورد، والله أعلم بعين الحقيقة.

ويرى بعض المفسرين أن المقصود بالإنسان الذى خلق هلوعا هو الكافر، ولا يشمل ذلك المسلم، وعلل ذلك بأن المسلم يصلى، والمصلى مستثنى من

(١) سورة المعارج ـ الآيات (١٩ ـ ٣٤).

الهلع . . .[1] غير أننا نرى كثيرا ممن وُلِدُوا فى الإسلام لا يعرفون منه شيئا غير الاسم والبيئة، كما أن الآيات ذكرت صفات كثيرة، والصلاة على رأسها، ثم إنها لم تقف عند المصلين فقط، بل لابد من الملازمة والمداومة عليها، والمحافظة المستمرة، والتعهد الدائم للصلاة وكل ما تصح به.

كما ذكرت الآيات المحافظة عليها، وهى تعنى الاعتناء بها والقيام على أمرها والإيفاء بكل شرائطها وأركانها، زيادة على الشروط المذكورة فى الآيات الأخريات التى تشمل الصفات الخُلُقية والاجتماعية التى هى قوام المجتمع الصالح والمميزة للشخصية الإسلامية، وهى التى يقوم الدعاة ببثها بين الناس وحثهم عليها وبذر بذورها بينهم وإنمائها وتعهدها؛ لكيلا تذبل وتخبو بسبب تراكمات الباطل، كالكربون يحجز تماس الكهرباء فتنطفئ الشمعة أو كالحديد يأكله الصدأ بطول المكث، وكذلك الناس إذا طال عليهم الأمد ينسون.

ولقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، يتألف القلوب ويطب النفوس؛ ليقيها من مرض الهلع والجشع لا يفتك بها، فيدمر شخصيتها ويطمس هويتها، قال الحسن: حدثنا عمرو بن تغلب (أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أُتِىَ بمال أو سبى، فقسمه فأعطى رجالا، وترك رجالا، فبلغه أن الذين ترك، عتبوا، فحمد الله، ثم أثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فوالله إنى لأعطى الرجل، والذى أدع أَحَبُّ إِلَىَّ من الذى أعطى، ولكن أعطى أقواما لما أرى فى قلوبهم من الجزع والهلع، وأَكِل أقواما إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الغنى والخير، فيهم عمرو بن تغلب. فوالله ما أحب أن لى بكلمة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حمر النعم)[2].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، ١٨/ ٢٨٩.

(٢) البخارى كتاب الجمعة باب (٢٩) من قال فى الخطبة بعد الثناء: أما بعد الفتح ٢/ ٤٠٣.

وحذر الرسول، صلى الله عليه وسلم، من الهلع والجبن أشد تحذير، وجعله من أكبر الشرور التى تصيب المرء، فقال:

(شر ما فى رجل شح هالع وجبن خالع)[1].

(١) المسند للإمام أحمد بن حنبل، ٢/ ٣٠٢.

المبحث الثاني
الإسلام يعالج الخوف بأنواعه

الإسلام هو الطب الدوائى الناجع لكل أمراض الخوف وأنواعه الذى يصيب النفس البشرية، حيث قصرت عنه مدارس الطب النفسى المختلفة؛ لاعتمادها على الماديات، وخلوها من الروحانيات، كما أن الإسلام يكمن نجاح علاجه فى كونه من عند الله خالق النفوس وبارئها، وهو أعلم بأدوائها وأقدر على طبها.

سنتعرض فى المطالب التالية بعض الأشياء التى تسبب للإنسان الخوف وتصيبه بالقلق مع إبراز علاج الإسلام لها.

المطلب الأول: الخوف من الفقر:

وهذا النوع هو ما ذكرنا أنه يسمى بالهلع، حيث يشعر المريض به أنه فى لهاث دائم وخوف مستمر، مما يمكن أن يلحق به من جراء الفقر الذى يتوهم أن شبحه يداهمه ولو لم يكن فقيرا بالفعل.

والإسلام فى علاجه لهذا النوع يعمد إلى إشعار الإنسان بأن الرزق من عند الله، تعالى، وما على الإنسان إلا أن يسعى متحركا باذلا جهده فى طلبه وكسبه من الطرق المشروعة له.

ولقد طمأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المسلمين وآمنهم من الخوف من الفقر، طمأنهم طمأنينة تنزع الخوف من الفقر من قلوبهم إلى يوم القيامة، إلا من نقص إيمانه:

عن أبى الدرداء قال: خرج علينا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ونحن نذكر الفقر، فقال: (آلفقر تخافون؟! والذى نفسى بيده لَتُصَبَّنَّ عليكم الدنيا صَبّاً، حتى لا يزيغ قلب أحدكم إزاغة إلا هيه، وايم الله لقد تركتم على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء)[1].

فهذه الدواب لا تهتم للرزق، ولا يسبب لها قلقا ولا ضجرا ولا كدرا... ولا تحمل له هما ولا غما... فالله يرزقها... هذه المقارنة بين أرزاق الحيوان والإنسان، تجعل المرء يطمئن ويهدأ ويزول عنه الهلع والجشع: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[2].

ولقد امتن الله على كفار قريش بأن يسر لهم رحلتين تحفظان لهم سبل العيش، وأنه هو الذى هداهم لهاتين الرحلتين؛ إحداهما فى الشتاء إلى بلاد اليمن، والأخرى فى الصيف إلى بلاد الشام، فكانتا بمثابة التمويلين الموسميين:

﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾[3].

ولهذا فقد طلب منهم أن يتجهوا بالعبادة لرب البيت الذى أطعمهم مما

---

(١) رواه ابن ماجه فى المقدمة، باب (١) اتباع السنة حديث رقم (٥).
(٢) سورة العنكبوت ـ الآية (٦٠).
(٣) سورة قريش كلها.

كانوا فيه من جوع، وآمنهم من الخوف الذى كان يصيبهم بسبب الخوف من الفقر وغيره من أسباب الخوف.

﴿ ... فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾[1].

والآيات الواردة فى الرزق والكسب كثيرة والتى ترد كل ذلك فى أصله وأساسه إلى الله، تعالى، مع حث الإنسان على الحركة وبحث طرق التكسب لمجرد السبب، هذا مع منهج الإسلام العام الذى يربط الأشياء بمسبباتها.

يقول الرسول، صلى الله عليه وسلم، حَاثّاً على الكسب، مقسما على ذلك بالقسم المغلظ: (والذى نفسى بيده، لأَنْ يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة الحطب على ظهره فيبيعها فيكف الله بها وجهه ـ خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)[2].

لقد فصلنا القول فى هذا الموضوع فى الفصول السابقة، وذكرنا وقتها ما يثرى البحث العلمى ويغنى عن المزيد والتكرار[3].

وهذا العلاج الذى يورث النفس الطمأنينة والسكينة، والذى يجعل الإنسان يعيش فى مأمن من اللهاث وراء جمع المال وتكديسه، أو الحصول على لقمة العيش بكل وسيلة من الوسائل، ولو لم تكن مشروعة، ولو روَّع بها غيره أو أهدر حياته..

كل ذلك يمكن أن يحدث من جراء البحث وراء الثراء المادى أو إخماد

---

(١) سورة الملك ـ من الآية (١٥).

(٢) البخارى، كتاب الزكاة، باب (٥٠) الاستعفاف عن المسألة، الفتح ٣/ ٣٣٥، والترمذى كتاب الزكاة باب (٣٨) النهى عن المسألة ٣/ ٦٤، والمسند للإمام أحمد بن حنبل ١/ ١٢٤.

(٣) انظر: ص ٧٨ من هذا الكتاب.

جذوة الجوع... إن لم يتداركه ما يهدى النفس ويكبح جماحها ويطفئ نيرانها...

إن دافع الجوع ودافع الجشع والطمع يتساويان، وإن اختلفت الحاجات بين دافع الجوع العضوى ودافع الجوع النفسى لاكتناز الثروة؛ حيث الأول مشروع فى حد ذاته، فى حين أن الثانى غير مرغوب فيه لدى الأسوياء من الناس؛ لأن المطلوب هو سد الحاجة العضوية فقط.

المطلب الثانى: الخوف من المرض:

قد يصاب الإنسان بمرض خفيف، ولكنه لا يلبث أن يتفاقم ويزداد بسبب الخوف الذى يتحول إلى وهم، وهو مرض مركب يصعب علاجه، فكم من أناس مرضوا ابتداء، أو ازداد مرضهم بسبب الخوف التوهمى من المرض، كما أن البعض قد يشعر بأنه مريض بسبب مرض منتشر فى بيئته وإن لم يصبه.

وقد يتطور الخوف من المرض إلى وسواس وعقد نفسية تنهك قوى الإنسان، وتنهك جسده وترهق نفسه، وتبدد ماله، حيث يصبح أسيرا للدجالين والمشعوذين، باذلاً لهم كل ما يملك حتى قوت أولاده وما ملكت يداه، وما به من مرض حقيقى، ولكنه يحتاج فقط إلى ما يطمئن نفسه ويهدئ روعه، ولا يجد ذلك فى التردد على عيادات الأطباء، ناهيك عن أصحاب الدجل والشعوذة.

إن شفاء هذا النوع فى الإسلام حيث آيات القرآن وأحاديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، فيهما البلسم الشافى والطب الواقى، ولقد صدَّق ذلك التجريب العملى، وهاك بعض الآيات والأحاديث حول هذا المعنى:

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[1]. والله ينزل من القرآن ما هو شفاء، شفاء كله ولكل مرض بصيغ العموم:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[2]. والإيمان بالقرآن وبشفائه شرط أساسى من شروط التداوى، وهذه قاعدة حتى مع الطب البشرى، حيث راج مؤخراً ما يسمى بالعلاج بالإيحاء حيث يُطَمْأَنُ المريض بأنه سليم وليس به بأس، فيؤثر ذلك فيه إيجابيا، وإذا شاع عند الناس أن طبيبا بعينه ماهر فى تخصصه فى المرض الفلانى فإن مجرد ذهاب المريض إليه وكشفه عليه وإعطائه دواء يجعله يشعر بالراحة النفسية التى تؤثر إيجاباً؛ ولهذا شرط القرآن للتداوى به الإيمان، أما من لا يؤمن فإن ذلك يكون عليه وَبَالاً، لا علاجا: ﴿ ... قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ... ﴾[3].

والخائف الواجف من المرض ـ سواء أكان حقيقيا أو وهميا، هو فى كلا الحالين محتاج إلى ما يجعله مطمئنا، ساكن البال، هادئ الروع، محتاجاً إلى من يصبره بالشفاء، ويعده بالبرء؛ ولهذا فقد كان الرسول، صلى الله عليه وسلم، إذا زار مريضا دعا له بهذا الدعاء:

عن عائشة، رضى الله عنها، أن رسول الله، كان إذا أتى مريضا أو أُتِىَ به إليه قال، عليه الصلاة والسلام: (أَذْهِبْ الباس ربَّ الناس، اشف وأنت الشافى، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقما)[4].

---

(١) سورة الشعراء ـ الآية (٨٠).

(٢) سورة الإسراء ـ الآية (٨٢).

(٣) سورة فصلت ـ من الآية (٤٤).

(٤) البخارى: كتابر المرضى، باب (٢٠) دعاء العائد للمريض، الفتح ١٠/ ١٣١. والترمذى: كتاب الجنائز، باب (٤) ماجاء فى التعوذ للمريض، ٣/ ٣٠٣.

وكان يَعِد المريض بالشفاء من المرض، ويحثه على طلب العلاج والتماس التداوى كسبب فى العلاج والبرء، مع إسناد ذلك كله إلى الله، أعنى إسناد المرض والدواء، حتى إذا عرف المريض أن كل ذلك من عند الله، اطمأن وهدأ، وكان يقول، صلى الله عليه وسلم: (ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء)[1].

والقرآن كله شفاء ورحمة، بل وفاتحته التى جعلها الله فى كل صلاة هى شفاء، كما قال، صلى الله عليه وسلم: (فى فاتحة الكتاب شفاء من كل داء)[2].

ونجد هذا الشفاء فى عبادات الإسلام، كما هو فى القرآن، وليس هذا غريبا، فكم من أناس لم يكونوا يعرفون الطمأنينة فى حياتهم، ولم يذوقوا لذيذا لعيشهم ولا طعما لحياتهم، ولم يعرفوا الهدف والفائدة منها برمتها، ولكنهم وجدوا كل راحة نفسية وشفاء من تلك العلل ـ التى نغصت عليهم حياتهم ـ فى الإسلام، عندما خالطت بشاشته قلوبهم، ولامست سويداء أفئدتهم، فعادوا إلى الحياة من جديد، وأطلوا عليها بروح أخرى، بعد أن خلعوا عنهم قميص الثعبان وتسربلوا سربال الإسلام، فهذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول لأبى هريرة، رضى الله عنه: (قم فَصَلِّ فإن فى الصلاة شفاء)[3].

وهكذا يلزم الدعاة إلى الله أن يعالجوا المدعوين بهدى الإسلام ـ حيث تضيق بهم مصحات البشر ـ ويسكنوا خوفهم من الأمراض التى جلها بسبب الخوف من المرض نفسه، وأن يذكروهم بأن من اتبع هدى الله فلا يقربه الخوف: ﴿ ... فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[4].

---

(١) رواه ابن ماجه فى كتاب الطب، باب (١) ٢/١١٣٨.

(٢) رواه الدارمى فى سننه، كتاب فضائل القرآن، باب فضل فاتحة الكتاب، ٢/٤٤٥.

(٣) رواه الإمام أحمد فى مسنده، ٢/ ٣٩٠.

(٤) سورة البقرة ـ من الآية (٣٨).

المطلب الثالث: الخوف من الموت:

الخوف من الموت توءم للخوف من المرض؛ لأن الثانى ينذر عن الأول، وهو بعض أسبابه وأكثر الخوف من المرض يأتى نتيجة للخوف من الموت، والإنسان يخاف الموت بالرغم من يقينه بأنه لا محالة مدركه ولاحقه، والغريب أن هذا الخوف يتملك الشيخ الفانى مثلما يتملك الصبى اليافع والشاب الناهض. . .

وحاول الإنسان جاهدا تفادى الموت، وإطالة عمره!! حاول الأطباء قديما وحديثا، ولا يزالون ينتجون الأدوية والعقاقير الطبية ويطلقون عليها دعاياتهم بأنها تطيل العمر، وتنسئ فى الأجل!! وتوسع فى الرزق!! ولكن كل ذلك لم يجد شيئا، لا أطال عمر إنسان، ولا وسع فى رزقه، ولم ينقص من عمره ولم يزد فيه، وخير لهم لو اتجهوا إلى الذى بيده الموت والحياة والرزق.

إن الإيمان بالله والعمل الصالح وفعل الخيرات وترك المنكرات ـ هى وحدها التى تطيل العمر. .

عن أبى هريرة: (قال: سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: من سره أن يُبْسَطَ له فى رزقه وأن يُنْسَأَ له فى أثره فَلْيَصِلْ رحمه)[1].

والقلب العامر بالإيمان لا يخاف الموت؛ لأنه يعلم أن ذلك بيد الله وحده، وأن لكل أجل كتاباً، وأن الموت ـ لا محالة ـ مدركه يوما ما، وأن

(١) متفق عليه، البخارى بشرحه فتح البارى، كتاب الأدب، باب (١٢) من بسط له فى الرزق بصلة الرحم، ١٠/ ٤١٥، ومسلم بشرح النووى كتاب البر، الحديث (٢٠) باب صلة الرحم، ١٦/ ١١٤، وسنن ابى داود كتاب الزكاة باب (٤٥) صلة الرحم، ٢/ ١٣٦.

أجل الله إذا جاء لا يؤخر، كما أن إيمانه بربه يجعله لا يفر من لقائه؛ لأنه موعود بالجنة والرضوان، وهذا يظهر جليا فى الجهاد وطلب الشهادة، وكلما ساءت علاقة الإنسان بربه، وكلما ضعف الإيمان وخبت جذوته ـ ازداد الشعور بالخوف من الموت...

والخوف من الموت يسير فى أربعة مسارات، كلها تصب فى النهاية فى الموت نفسه، نجملها فيما يلى:

المسار الأول: الانتقال من الدنيا:

الإنسان لا يود أن ينتقل من الدنيا برغبته، ويود أن يمكث فيها أطول فترة، بل كيفما امتدت به الحياة وطال عمره، يرى ذلك يسيرا، ويود أن يتمتع بلذيذ الحياة التى هى فى الحقيقة فيها شقاء كثير، ولعل الخوف من الدار الآخرة التى لم يألفها الإنسان يؤثر كثيرا فى الرغبة فى البقاء وعدم الانتقال، خاصة أصحاب الإيمان الضعيف أو الذين ينعدم عندهم ذلك أصلا، فهؤلاء أكثر خلق الله هلعا وجزعا وأشدهم فرقا من الموت، أما المؤمن فيعرف أن أجله محدود، وانتقاله محتوم، وهو أمر مبرم القضاء جرى به القلم وجفت منه الصحف:

﴿ ... إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[1].

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ... ﴾[2].

ويعلم أنه لن يموت حتى يستكمل رزقه، ويوفى عيشه من الدنيا: ﴿ ... وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[3].

---

(١) سورة نوح ـ من الآية (٤).

(٢) سورة الجمعة ـ من الآية (٨).

(٣) سورة فاطر ـ من الآية (١١).

فالمؤمن يعرف ويوقن أن أجله فى الدنيا محدود، ويسير وفق قانون لايتغير ولا يتبدل، فإذا حان الموعد انتقل إلى الدار الأخرى وأخلى منزله هنا ليشغله غيره إلى أجل آخر.

ولهذا كان النبى، صلى الله عليه وسلم، يُهَوِّن من أمر الدنيا، ويقلل من شأن التشبث بها الذى يوصل المتشبث إلى درجة الخوف المرضى الذى يعطل قدرات الإنسان، ويحول بينه وبين الاستفادة من حياته المؤقتة، كان يهوِّن ذلك بقوله الآتى:

(عن عبدالله قال: اضطجع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على حصير، فأثر فى جنبه، فقلت: بأبى أنت وأمى يارسول الله! لو كنت أذنتنا ففرشنا لك عليه شيئا يقيك منه! فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ما أنا والدنيا! إنما أنا والدنيا كراكب سار فى يوم صائف فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها)[1].

وفى نفس الوقت حث الإنسان أن يكون فَعَّالاً إلى آخر لحظة يعيشها، وأن يقتنص كل فرصة فى بقائه فى الدنيا؛ ليستفيد منها فى تعمير الأرض بالخير ويفيد غيره، وهى المهمة التى خلق الله الإنسان من أجلها فى الأرض، وأنزله لأجلها من الجنة..

عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (إن قامت على أحدكم القيامة وفى يده فسيلة فليغرسها)[2].

هكذا التوازن فى الإسلام لا ترجح فيه كفة فتطيش بالأخرى، ولا يطغى عنصر على الآخر، ولا يجرى الماء فى غير مجراه المخصص له، هذا شأن

---

(١) مسند الإمام أحمد، ١/ ٣٠١، وابن ماجه فى سننه: كتاب الزهد باب (٣) ما مثل الدنيا ٢/ ١٣٧٦، والترمذى فى سننه: كتاب الزهد باب (٤٤)، ٤/ ٥٠٨.

(٢) رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده، ٣/ ١٨٤.

الإسلام فى أصله ومنهجه، أما شأن المسلمين وواقعهم فلا يحاكم به الإسلام، ولكنهم هم يحاكمون بمنهج الإسلام ويعارون بمعياره.

أما غير المؤمن فإن الخوف من الموت وحب الدنيا يجعله دائما فى قلق واضطراب نفسى، وتشبث بعراها المهترئة، واحتماء بسترها المهتوك، فهو حريص على البقاء بأية صورة من الصور، ولو دمر غيره: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾[1].

المسار الثانى: الخوف من سكرات الموت:

إن سكرات الموت أول المجهولات التى تخيف الإنسان، فالأحياء يلاحظون صراع المحتضر مع الموت والنزاع المحتدم بين الروح والجسد، ولكنهم مع ذلك لا يستطيعون مدى تقدير المعاناة التى يلقاها المحتضر، فهم ينظرون بأعينهم عراك واقتتال المحتضر والموت، ويسبب لهم ذلك ما فيه الكفاية من الذعر والهلع من المصير الذى ينتظرهم: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾[2].

(وسكرات الموت هى كرباته وغمراته)[3]، ويلاقيها كل إنسان مع تفاوت فى الشدة..

ولقد جاءت بشائر كثيرة فى النصوص الإسلامية والآثار، تدل على

---

(١) سورة البقرة ـ من الآية (٩٦).

(٢) سورة ق ـ الآية (١٩).

(٣) انظر اليوم الآخر (١) القيامة الصغرى، د/ عمر سليمان الأشقر ص ٢٤، ط ١، (١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٦ م). مكتبة الفلاح بالكويت.

تخفيف سكرات الموت بالنسبة للمؤمن، الشيء الذى يشرح صدره، ويهون عليه المعاناة التى تسبق الموت، نأخذ طَرَفاً من حديث البراء بن عازب الطويل الذى يرويه عن الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى هذا المعنى، حيث جاء فيه:

(. . إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت ـ عليه السلام ـ حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون ـ يعنى بها ـ على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى. . .)[1].

حرصتُ على نقل هذا النص النبوى، لما يجده فيه المؤمن من طمأنينة وراحة تذهب عنه كل خوف من سكرات الموت، بل وتُهَوِّن عليه مصيبة انتقاله من دار الدنيا. وربما جعلته يتشوق للقاء ربه. . . وهكذا نود للدعاة أن يبشروا أولئك القانطين الخائفين الذين سبب لهم الموت عقدة أماتتهم وهم

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده، ٤/ ٢٧٦.

أحياء وجعلتهم أمواتا فى الدنيا، إن الذى يقرأ أمثال هذا النص لا يصاب بالاكتئاب من جراء الخوف من الموت، ويجعله يزداد طاعة وصلاحا وتقربا من ربه، ساعيا لرضاه، مبتعدا عن معاصيه.

وممن تخفف عنهم سكرات الموت الشهداء، فقد قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: (الشهيد لا يجد ألم القتل إلاّ كما يجد أحدكم ألم القرصة)[1].

وقد يعانى بعض الصالحين من سكرات الموت، وذلك إما لزيادة ثوابهم أو لتكفير بعض ذنوبهم، مع اختلاف تلك المعاناة فى الشدة، بل حتى من يقبض فجأة بمثل السكتة القلبية أو نحوها من الأمراض سريعة الموت، يعانى السكرات، ولو داخليا أثناء خروج الروح.

ولقد روت السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ نحوا من ذلك عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى مرضه فقالت: (إن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان بين يديه ركوة، أو علبة فيها ماء ـ يشك عمر ـ فجعل يدخل يده فى الماء فيمسح بها وجهه ويقول: فى الرفيق الأعلى، حتى قبض فمالت يده)[2].

ولا يكون وقع الشىء أقرب إلى الحقيقة والتصديق، ولا يؤتى ثماره المرجوة، إذا لم يقابل بضده، حيث يوازن المرء بين الأمرين، ويجرى بينهما مقارنة تبين له الطريق الصحيح والنهج القويم...

ولكى تحصل هذه المقارنة والموازنة، نذكر الجزء الآخر من النص أعلاه،

---

(١) المرجع السابق ٢/ ٢٩٧. ورواه الدارمى فى كتاب الجهاد باب (١٦) فى فضل الشهيد ٢/ ٢٠٥. ورواه الترمذى مع اختلاف فى اللفظ فى كتاب الجهاد باب (٢٥) فى ثواب فضل الشهيد ٤/ ١٦٠.

(٢) رواه البخارى فى كتاب الرقاق باب (٤٢) سكرات الموت، الفتح ١١/ ٣٦١.

الذى ورد فى انتزاع أرواح غير المؤمنين المتقين؛ لنرى كيف تخرج أرواحهم، وكيف تنتزع من أجسادهم، وكيف يعالجون غمرات الموت، ولننظر هل تجد أرواحهم ـ عند خروجها ـ ذلك الاحتفاء والاحتفال من الملأ الأعلى الذى تجده أرواح المؤمنين؟

لنعد إلى النص السابق لنستكمل منه هذا الجانب الخاص بكيفية قبض أرواح غير المؤمنين الوارد فى حديث البراء بن عازب.

(. . . قال: وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق فى جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من فى الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟! فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا، حتى ينتهى به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله، صلى الله عليه وسلم: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾[1]، فيقول الله، عز وجل: اكتبوا كتابه فى سجين فى الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا، ثم قرأ: ﴿ ... وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ[2] ﴾[3].

(١) سورة الأعراف ـ من الآية (٤٠).
(٢) سورة الحج ـ من الآية (٣١).
(٣) مسند الإمام أحمد ٤/ ٢٨٨.

المسار الثالث: الخوف من عذاب القبر:

لعل هذا أكبر أو من أكبر ما يخيف الإنسان من الموت، تلك الحفرة المظلمة الخالية من الأكسجين، المقفرة الموحشة التى لا أنيس فيها من البشر، ولا حول للإنسان فيها ولا قوة، تلك الحفرة التى تكمم الأفواه وتقطع الأنفاس وتحبسها بين الضلوع... القبر وما أدراك ما القبر!! إنه من وجهة نظر الإنسان المجردة، بيت الوحدة والوحشة وفراق الأهل والأحبة... إضافة إلى المجهول الذى ينتظر الإنسان.

وهو بيت الظلمات التى تطبق على الإنسان، فتحيطه من كل جانب، إحاطة السوار بالمعصم، مع فارق عدم الزينة، إلا من زينة الله له؛ ولهذا فقد قال، صلى الله عليه وسلم:

(إن هذه القبور مليئة ظلمة على أهلها، وإن الله، عز وجل، منورها لهم بصلاتى عليهم)[1].

قال ذلك الرسول، صلى الله عليه وسلم، عندما أخبروه بموت المرأة التى كانت تقم المسجد وقد دفنوها بليل وكرهوا أن يوقظوه، فلما أخبروه قال لهم: دلونى على قبرها، فصلى عليها، وذكر الحديث أعلاه.

لهذا فهو مخيف ومرعب ومفزع يسبب الجزع والهلع لمن لم يكن فى قلبه إيمان أو من كانت أعماله قبيحة، وعلاقته بربه مبتوتة، يبين تلك المعانى قول الرسول، صلى الله عليه وسلم: (... فأكثروا من ذكر هادم اللذات الموت، فإنه لم يأت على القبر يوم إلا تكلم فيه فيقول: أنا بيت الغربة، أنا بيت الوحدة، أنا بيت التراب، أنا بيت الدود... إنما القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار)[2].

---

(١) رواه مسلم فى كتاب الجنائز، باب (٧) وفى المسند لأحمد ٣/ ١٥٠.

(٢) رواه الترمذى فى كتاب صفة القيامة والرقاق والورع، باب (٢٦)، ٤/ ٥٥١.

والخوف من عذاب القبر يلازم معظم الناس، ولكن درجات ذلك تتباين حسب موقع كل إنسان من الإسلام، ومدى تمسكه بالدين، ولكنه ـ على كل حال ـ يسبب عقدة الموت لعدد كبير من البشر، مما يستلزم الدعاة أن يخففوا على من كان ذلك شأنه، وأن يذكروا له أن المؤمن الصادق مع ربه لا يخاف من الموت شيئا، لا من القبر ولا غيره، حيث علاقته بربه قوية، ورباطه وثيق ومتين، ونذكر لهم النصوص الواردة فى أحوال البرزخ وما يلقاه أهل التقوى والصلاح وما يلقاه العصاة، وأن على الصالح ألا يخاف ولا يقلق، وأن يذكر وعد الله لعباده المخلصين... ولهذا يمكن تحسين علاقة الإنسان بربه وتطمينه من خوف الموت وما بعده...

وثم فرق بين خوف المؤمن من عذاب القبر، وبين خوف غير المؤمن منه، حيث خوف الأول يدفعه للعمل الصالح واجتناب ما حرم الله وما نهى عنه، وغشيان الطاعات، وعمل الصالحات، وتعمير الأرض بالخير، وهذا ما ورد عن الخليفة عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ فيما يرويه عنه مولاه هانئ، فيقول:

(كان عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ إذا وقف على قبر بكى، حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكى، وتذكر القبر فتبكى؟! فقال: إنى سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: القبر أول منازل الآخرة، فإن ينج منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه، قال: وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: والله ما رأيت منظرا قط إلاَّ والقبر أفظع منه)[1].

فتنة القبر:

وأول فتنة القبر، التى لا ينجو منها إنسان وإن تفاوتت درجاتها وأنواعها

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده، ١/٦٣.

وشدتها وقلتها ويسرها وصعوبتها... وأبرز تلك الفتن، ضمة القبر، فمن الناس من يضمه القبر حتى تختلف أضلاعه ويهتك لحمه، ومنهم من هو دون ذلك، والصالح السعيد يضمه القبر ضمة الأم الرءوم، لوليدها، تحنو عليه بالقبلات، وإن كانت الضمة ـ عموما ـ حاصلة حسب النصوص الشرعية، فمن ذلك، ما رواه ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى موت سعد بن معاذ ـ رضى الله عنه:

(هذا الذى تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لقد ضمه ضمة ثم فرج عنه)[1].

ومن فتن القبر السؤال من قِبَلِ الملائكة الموكلة بذلك، فما من إنسان إلا ويتعرض لذلك السؤال والامتحان العسير، واليسير على من وفقه الله، ولمن ذاكر واجتهد وحفظ الدرس ووعاه فى دار الدنيا، التى هى دار التحصيل، متزودا به إلى الآخرة التى هى دار الامتحان فى أولها، قبل دخول الجنة أو النار لجنى ثمار غرس الدنيا، إنْ خيراً وإنْ شراً...

عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (إن العبد إذا وضع فى قبره وتولى عنه أصحابه ـ وإنه ليسمع قرع نعالهم ـ أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ لمحمد، صلى الله عليه وسلم، فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة، فيراهما، قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له فى قبره، ثم رجع إلى حديث أنس، قال: (وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول فى هذا الرجل؟ فيقول: لا أدرى! كنت أقول ما يقول الناس! فيقال له: لادريت ولا تليت،

(١) رواه النسائى فى كتاب الجنائز باب ضمة القبر ٤/ ١٠٠ وأحمد فى المسند ٣/ ٣٣٢٧.

ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين)[1].

ومما جاء فى عموم عذاب القبر دون ذكر استثناء، حديث أسماء بنت أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنهما ـ قالت: (قام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خطيبا فذكر فتنة القبر التى يفتتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضج المسلمون ضجة)[2].

وقد كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يتعوذ من عذاب القبر، وقال قندر: (عذاب القبر حق...)[3].

وكما ذكرت سابقا، فإن المؤمن الذى كان يعمل الصالحات ويسعى فى خير الناس، يبشر ببشائر كثيرة عند دخوله القبر، فيرقد هادئ البال، ينظر إلى مقعده فى الجنة، كما جاء فى حديث البراء بن عازب السابق، الذى ذكر فيه:

(... قال: فتعاد روحه فى جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربى الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، صلى عليه وسلم، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت، فينادى مناد فى السماء: أن صدق عبدى، فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد البصر، قال ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب طيب الريح، فيقول أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنت توعد، فيقول

(١) و (٢) البخارى: كتاب الجنائز باب (٨٦) الفتح ٣/ ٢٣٢.
(٣) المرجع السابق، نفس الكتاب والباب، الفتح ٢٣٢٣.

له من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير فيه، فيقول أنا عملك الصالح، فيقول: رب، أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى..)[1].

إن تلك البشائر لجديرة بأن ترفع الروح المعنوية، وتزيح الخوف والهلع الذى يلازم كثيرا من النفوس فيجعلها بائسة كالحة، إنه الأمل الذى تنشده النفوس المريضة بالخوف فلا تجده إلا فى الإسلام، فهذه الوعود التى تسكن الروع وتؤمن الفؤاد، لا تقدر عليها مدارس علم النفس الغربية، إنما الإسلام وحده هو المنفرد بهذا..

هذا ما كان بالنسبة للمؤمن، أما الطرف الآخر الذى سود وجه صحيفته، وأضل طريقه وأفسد عمله، فإن ما يلقاه من عذاب القبر، لهو قمين به أن يجعله يراجع حساباته من هنا قبل أن يدخل بيت الظلمات، يتمثل ذلك الإنذار المبكر فى بقية حديث البراء بن عازب الآتى:

(... فتعاد روحه فى جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى!! فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى!! فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى!! فينادى مناد من السماء: أن كذب فافرشوا له من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها. ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب نتن الريح، فيقول: أبشر بالذى يسوؤك، هذا يومك الذى كنت توعد! فيقول: من أنت؟ وجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث! فيقول: رب، لا تقم الساعة!!)[2].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤/ ٢٨٧.

(٢) نفس المرجع السابق، نفس الجزء ص ٢٨٨.

المسار الرابع: الخوف من يوم الحساب:

المقصود بيوم لحساب، هو يوم القيامة الكبرى؛ ذلك لأن الموت والبرزخ وما حوله... ذلك كله يعد بمثابة القيامة الصغرى، أما القيامة الكبرى فهى يوم الهول العظيم، يوم يحشر الناس ضحى حفاة عراة غرلا، يوم يذهل كل امرئ عن خليله، وتذهل كل مرضعة عن وليدها، يوم التناد، يوم الطامة الكبرى، والصاعقة والماحقة... إنه يوم مجموع له الناس ويوم مشهود..

إن أهوال يوم القيامة لا يمكن أن يسطرها قلم ولا يصفها واصف، فقد كفى فيها وصف الله لها، وحق لمن عرف ذلك اليوم أو سمع عنه، أن يعمل له كل حساب، وأن يأخذ له كل أهبة واستعداد... إنه يوم مخيف مرعب متعب، إلا لمن يسره الله له، يوم تدنو فيه الشمس من الرءوس... حيث لا ظل إلا لمن أظله الله بظله.. إن الخوف من يوم القيامة يوم البعث والنشور ما ينبغى أن يؤدى إلى الجنوح والمرض، ولكن يجب أن يؤدى إلى إصلاح النفس وحملها على الطاعة لرب ذلك اليوم، يوم ينادى المنادى: ﴿ ... لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[1].

إن الإسلام يناديا، معشر البشر، من الآن ونحن فى أكثر حالاتنا قوة ومنعة، أن نأخذ العدة لذلك اليوم، وهى تقوى الله، تعالى؛ لكيلا نندم ولات ساعة مندم! والله لا يناديا من غير أن يبين لنا، بل نادانا ووصف لنا ذلك المشهد العظيم، رسمه فى لوحة عظيمة الوصف بارزة الملامح واضحة القسمات، رسم لنا لوحة فى شاشة كبرى ناصعة ونظيفة، عرض فيها ذلك اليوم عرضاً جليا بينا... هكذا يقول النداء:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ

(١) سورة غافر ـ من الآية (١٦).

تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾[1].

مراحل يوم القيامة:

إن هذا اليوم الرهيب المهيب، يمر على مراحل كلها تصفيات وتمحيصات، وكلها عجائب وغرائب يشيب لها الولدان المرد، ويلين من هولها الجلمود الصلد، نذكرها باختصار؛ لتتهيأ لها النفوس، ويستقيم المعوج، ويستعد الغافل، وينشط الكسول الخامل، ويصح من به مرض نفسى أو عقلى، ويتوب العاصى المتمرد على ربه... إنها ذكرى لأولى الألباب.. إن لذكر هذا اليوم وأهواله أثراً عظيماً على النفس البشرية، فالإنسان عندما يعرف أن هناك حسابا وعقابا على أعماله فى الدنيا، فإنه يعمل على أن يكون حسابه حسنا وثوابه عظيما... فتسكن نفسه، ويهدأ باله، ولو عرف علماء النفس هذا الأثر لجلعوه من أولويات ما يدرِّسونه لطلابهم.

المرحلة الأولى: النفخ الأول فى الصور:

هذا النفخ يكون قبل البعث ويكون للأحياء ـ على أكثر الأقوال ـ فيأمر الله الملك بالنفخ فى الصور نفخة واحدة مدوية صاعقة ماحقة، فخر كل من يسمعها، وتموت كل الأحياء إلا من شاء الله: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ... ﴾[2].

وهذه النفخة الصاعقة الهائلة المدوية المدمرة، تحدث فجأة وتباغت الناس مباغتة، وهى التى عناها الرسول، صلى الله عليه وسلم، بقوله عن قيام الساعة:

---

(١) سورة الحج ـ الآيتان (١ و ٢).

(٢) سورة الزمر ـ من الآية (٦٨).

(ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبيهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه، فلا يسقى فيه، ولتقومن الساعة وقد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها)[1].

وهذه النفخة لها أسماء عديدة كلها من نوع شدتها وقوة جذبها للأنفاس، فجاء قوله، تعالى، فيما ينتظره العصاة تحذيرا لهم بالمبادرة بالتوبة والإنابة قبل مجيء تلك الصاعقة: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾[2]. وهذا مطابق لحديث الرسول، صلى الله عليه وسلم، السابق فى سرعة الصعق فى حديث الذين يتبايعون، ومن يحلب لقحته..

وسميت النفخة بالراجفة التى ترجف من شدتها القلوب، وتنخلع الأفئدة، وتصك الآذان، ويخر الناس مغشيا عليهم: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾[3].

المرحلة الثانية: النفخ الأخير:

وهذه النفخة هى التى يحيى الله فيها الناس للحساب وليقودهم إلى المحشر؛ ليأخذ كل فرد حقه، فيقوم الخلق يترنحون من شدة الذعر والهلع، يخرجون حفاة عراة غرلا كما ولدتهم أمهاتهم، ولقد أشار القرآن إلى هذه النفخة الأخرى فى قوله، تعالى: ﴿... ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[4].

(١) صحيح البخارى بشرحه فتح البارى، كتاب الفتن، باب (٢٥) ١٣/٨٢.
(٢) سورة يس ـ الآيتان (٤٩ و ٥٠).
(٣) سورة النازعات ـ الآية (٦).
(٤) سورة الزمر ـ من الآية ٦٨).

وقوله، تعالى:

﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾[1].

إنه يوم تقلب فيه الموازين، وتختلف فيه المعايير، فهو يوم آخر له مقاييسه ومعاييره وموازينه التى تختلف عن تلك التى فى دار الدنيا، بل حتى الأرض والسموات كلها تتبدل وتتغير...

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾[2].

إنه هول ترتعد منه الفرائص وتنخلع الأفئدة وتخشع الأبصار...

﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴾[3].

وفى هذه النفخة يقوم كل أهل الأرض الذين ماتوا فى النفخة الأولى والذين كانوا ميتين من قبل: ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾[4].

المرحلة الثالثة: يوم الحشر العظيم:

وهو أعظم يوم وأخطر موقف يقفه البشر على الإطلاق، له شأن عظيم لا يصفه قلم، ولا يتصوره عقل، ولا يحيط به خيال، مهما بلغ من الخصوبة والشفافية... وهو يوم الأهوال، يوم مقداره خمسون ألف سنة من أيام

(١) سورة النبأ ـ الآيات (١٨ ـ ٢٠).
(٢) سورة إبراهيم ـ الآية (٤٨).
(٣) سورة النازعات ـ الآيات (٦ ـ ٩).
(٤) سورة يس ـ الآية (٥١).

الله . . . الشمس تتحرك من مدارها، وتقترب من كوكبنا الذى تغير هو الآخر وتبدل، فتسلط أشعتها المحرقة عليه، والناس حفاة عراة عطشى يلهثون من شدة الظمأ . . . وأدمغتهم تغلى من شدة الحر . .

ولقد وصف القرآن أحوال الناس فى هذا اليوم الكبير، بأوصاف عديدة كلها تعبر عن شدته وعظيم شأنه، منها قوله، تعالى: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾[1].

وعندما ذكر الرسول، صلى الله عليه وسلم، أهوال ذلك اليوم، وذكر أن الناس يحشرون حفاة عراة غرلا كما ولدتهم أمهاتهم . . . عندما ذكر ذلك، استغربت السيدة عائشة ذلك قائلة: وكيف ينظر الرجال للنساء والنساء للرجال وهم عراة؟!! ولكن الرسول، صلى الله عليه وسلم، ذكَّرها بأن ذلك اليوم أعظم من أن ينتبه إنسان لعورة الآخر، حيث تبلغ القلوب الحناجر، وتزيغ الأبصار وتحار الأفكار، وترتعد الفرائص . . .

عن محمد بن أبى بكر: (أن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: تحشرون حفاة عراة غرلا، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! فقال: الأمر أشد من أن يهمهم ذاك)[2].

إن يوم القيامة لجدير بأن يقف عنده الإنسان السوى العاقل، ويتأمل، ويستعرض القرآن الذى وصفه وصفا ما وصف قبله ولن يوصف بعده، فقد وصف حالة السموات والأرض والجبال والناس والدواب وشكل الأرض

---

(١) سورة عبس ـ الآيات (٣٤ ـ ٣٧).

(٢) متفق عليه، البخارى: كتاب الرقاق، باب (٤٥) الحشر، الفتح ١١/٣٧٧، ومسلم: كتاب الجنة حديث رقم (٥٧)، والدارمى: كتاب الرقاق، باب صفة الحشر (٨٠)، ٢/٣٢٦، والمسند لأحمد بن حنبل، ٦/ ٩٠.

وهيئة السماء. . . كل ذلك ببلاغة القرآن وروعة تعبيره. . . فيكفى أن نسمع هذا المثال من الوصف: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾[1].

ولقد فطن بعض الشعراء إلى هذا اليوم فنظم أهواله شعرا:[2].

مَثِّلْ لنفسك أيها المغرورُ ... يومَ القيامة والسماء تمورُ

إذْ كُوِّرَتْ شَمْسُ النهار وأُدْنِيَتْ ... حتى على رأسِ العباد تسيرُ

وإذا النجومُ تساقطتْ وتناثرتْ ... وتبدلتْ بعد الضياء كدورُ

وإذا البحارُ تَفَجَّرَتْ من خوفها ... ورأيتَها مثل الجحيم يفورُ

وإذا الجبالُ تَقَلَّعَتْ بأصولها ... فرأيْتَها مثلَ السحاب تسيرُ

وإذا العشارُ تَعَطَّلَتْ وتَخَرَّبَتْ ... خلَتِ الديارُ فما بها معمورُ

وإذا الوحوشُ لَدَى القيامة أُحْشِرَتْ ... وتقول للأملاك أين تسيرُ؟

وإذا تُقَاةُ المسلمين تَزَوَّجَتْ ... من حُورِ عينٍ زانَهُنَّ شُعُورُ

وإذا المؤودَةُ سُئِلَتْ عن شأنها ... وبِأَيِّ ذنبٍ قَتْلُها ميسورُ

وإذا الجليلُ طوى السما بيمينه ... طَيَّ السِّجِلِّ كتابه المنشورُ[3]

وإذا الصحائفُ نُشِّرَتْ فتطايرتْ ... وتَهَتَّكَتْ للمؤمنين سُتُورُ

وإذا السماءُ تَكَشَّطَتْ عن أهلها ... ورأيتَ أفلاكَ السماء تدورُ

وإذا الجحيمُ تَسَعَّرَتْ نيرانها ... فلها على أهل الذنوب زفيرُ

---

(١) سورة الطور ـ الآيتان (٩ و ١٠).

(٢) انظر: التذكرة فى أحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبى، ص ٢١٤، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

(٣) المنشور: بالرفع، نعت (لكتابه) علي القطع، خبر لمبتدأ محذوف.

وإذا الجـنانُ تـزخـرفـت وتطـيبت لفـتى عـلى طول البلاء صـبورُ[1]

وإذا الجـنينُ بـأمـه مـتـعلـق يخـشى القـصاصَ وقـلبُه مـذعور

هـذا بـلا ذنـب يخـاف جـنينه كيف المُصِرُّ على الذنوب دهورُ[2]

إن أهوال يوم القيامة، بمراحله المختلفة لجديرة بأن تهز النفس البشرية وتعيد لها توازنها الذى اختل بسبب تشعبات الحياة ومداخلاتها التى إذا ما تعمق فيها الإنسان أنسته الآخرة، وأورثته كثيرا من الأمراض النفسية التى لا تزول إلا بتذكر الآخرة والتفكر فى أهوالها وأحوال الناس فيها. . .

(١) صبور: بالرفع، نعت (لفتى) علي القطع، خبر لمبتدأ محذوف.

(٢) الصواب: دهوراً: لأنها ظرف زمان، ولكنه ضم الراء مجاراة لأواخر الأبيات.